# سألت أبي

## رحلة حوارية في السيرة النبوية العطرة قلباً ونبضاً

خالد بن ياسين

# سألت أبـي

**جميع الحقوق محفوظة © للمؤلف: خالد بن ياسين *****

**إذن النشر والتداول: يُسمح بتحميل هذا الكتاب ومشاركته كاملاً، بشرط عدم تغيير أو تعديل أي حرف من محتواه، والاحتفاظ باسم المؤلف، وألا يُستخدم لأغراض تجارية.**

**نسأل الله القبول والانتفاع.**

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

# إهداء

**إلى كل أب حانٍ يغرس في قلوب أبنائه حب الأسوة الحسنة...**
**إلى كل شاب يطرق باب الحقيقة، ويبحث عن النقاء والقدوة في زمن الضجيج...**

**أهدي هذا السِفْر المتواضع، راجياً أن يكون روضة يرتع فيها المحبون، ونافذة تطل منها أرواحكم على أعظم إنسان وطئ الأرض.**

# الفصل الأول

كانت شمس الجمعة تميل إلى الهدوء وهي ترسل خيوطها الدافئة عبر نوافذ المسجد القديم. كان "طارق" جالساً في الصفوف الخلفية، مأخوذًا بنبرة خطيب المسجد الذي أنهى خطبته بعبارة هزت وجدانه بعمق:

*— "يا عباد الله، اقرؤوا سيرة نبيكم صلى الله عليه وسلم.. لا تقرؤوها سرداً عابراً، بل عاشروها بتفاصيلها، واعرفوا كيف نشأ، وكيف مشى بين الناس، وكيف تفاعل مع مجتمعه صغيراً وشاباً ورجلاً، لتعلموا أن العظمة الإنسانية تُبنى لبنة لبنة!"*

علق صدى الكلمات في ذهن طارق طوال الطريق إلى البيت. وحين وصل، فتح حاسوبه وبدأ يبحث في محركات البحث عن "السيرة النبوية بالتفصيل الدقيق ومنذ الولادة". ظهرت له آلاف النتائج؛ مقالات عامة،

ملخصات سريعة، أو كتب أكاديمية ضخمة تبدأ مباشرة بالبعثة وتتجاوز تفاصيل الطفولة والنشأة الاجتماعية إلا لمماً. شعر بشيء من الإحباط؛ فهو لا يريد معلومات مجتزأة، ولا يريد سرداً جافاً للأحداث الكبرى فحسب، بل يريد أن يعرف: كيف كان طفلاً؟ كيف كانت تفاصيل مولده؟ ماذا قال الناس حوله؟ كيف بدأ وعيه يتشكل في مكة؟

أغلق طارق جهازه، واتجه بخطوات هادئة نحو مكتبة والده المنزلية. كان أبوه رجلاً يحب القراءة العميقة، ويهوى تتبع الأثر. وجده جالساً يرتشف قهوته المعتادة وينقب في كتاب قديم صفره الزمن.

ابتسم الأب حين رأى في عيني ابنه ذلك الألق الذي يسبق الأسئلة الكبرى.

— أراك ممتلئاً بالأسئلة يا طارق، كأن خطبة اليوم زرعت في قلبك شيئاً.

جلس طارق قبالة أبيه، وقال بصوت يمزج بين الحيرة والفضول:

— صدقت يا أبي.. الخطبة أيقظت فيّ رغبة عارمة لأعرف كل شيء عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. بحثت اليوم فوجدت معلومات عامة، أو تفاصيل مبعثرة لا تشفي غليلي. أريد أن أعيش القصة من بدايتها.. من اللحظات الأولى، من الجذور، من كل تفصيلة صغيرة رواها

المؤرخون وكأنني أراها رأي العين. هل تفعل معي ذلك؟ هل تبدأ معي الحكاية خطوة بخطوة، من الجذور الأولى؟

تنفس الأب الصعداء، وأغلق الكتاب الذي بين يديه، وظهرت على محياه ابتسامة حانية وهو يقول:

— يا بني، لقد طلبت باباً عظيماً. إن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ليست مجرد تواريخ، بل هي حياة كاملة صيغت بعناية إلهية لتعلم البشرية جمعاء. وإذا أردت أن تفهم الشجرة، فعليك أن تبدأ بتفقد الجذور والتربة التي نبتت فيها أول مرة. اسأل عما بدا لك، وسأروي لك ما ثبت في الروايات الصحاح والمصادر المعتمدة.

انفرجت أسارير طارق، وعدل جلسته، وقال:

— إذن، لنبدأ من البداية تماماً.. من البيئة، من الأجداد، ومن العالم الذي استقبل ميلاده، وكل ما قيل عن الجذور التي سبقت ولادته بالتسلسل. فمن أين نبدأ الحكاية يا أبي؟

نظر الأب إلى النافذة حيث بدأت شمس المغيب تُرسل أشعتها الذهبية، وقال بصوت هادئ ومفصل:

— إذن لنرجع بالزمن إلى الوراء، إلى العالم وشبه الجزيرة العربية قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم، لنرى التربة التي نبتت فيها هذه النبوة:

## العالم قبل محمد والجزيرة الممزقة

يا طارق، لم يولد محمد صلى الله عليه وسلم في فراغ تاريخي، بل كان العالم يومئذ يرزح تحت وطأة ظلام دامس واستبداد ثقيل. كانت القوتان العظميان في ذلك الزمان، فارس (المجوسية) والروم (النصرانية المحرفة)، تخوضان حروباً مدمرة استنزفت دماء الشعوب وطمست معالم العدل الإنساني. أما في جزيرة العرب، فقد كانت الصحراء مسرحاً لقانون القبيلة والعصبية العمياء، حيث يغيب القانون العادل ويسود منطق القوة. لم تكن مكة وحدها تعج بالجاهلية، بل كانت مقراً لأكثر من ثلاثمائة وثمانين صنماً تحيط بالكعبة المشرفة، ووصل الانحطاط الاجتماعي ببعض القبائل إلى وأد البنات وقطع الأرحام، وسط غفلة تامة عن توحيد إبراهيم الخليل عليه السلام، كما وصف القرآن حالهم:

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ [النحل: 58-59].

## معجزة حماية البيت: قصة أصحاب الفيل

وسط هذا الركام، أراد الله عز وجل أن يمهد لبيته الحرام حماية إلهية كبرى ترفع من مكانته وتلفت أنظار العرب إلى عظمته قبل مولد نبيه بنحو خمسين يوماً. وهنا تجلت قصة أصحاب الفيل.

كان أبرهة الأشرم، حاكم اليمن من قبل مملكة الحبشة، قد لاحظ إقبال العرب على حج الكعبة، فبنى كنيسة ضخمة في صنعاء سماها "القليس" ليصرف حج العرب إليها. فغضب رجل من العرب ودخل الكنيسة ليلاً فلوثها. فلما علم أبرهة حلف ليهدمن الكعبة حجراً حجراً. جهز أبرهة جيشاً جراراً يضم فيلاً عظيماً لم تره العرب من قبل، وزحف حتى اقترب من مكة.

أرسل أبرهة جنوده فسلبوا إبل قريش، وكان فيها مئتا إبل لسيد مكة وكبيرها عبد المطلب بن هاشم. فجاء عبد المطلب ليقابل أبرهة، فلما رآه أبرهة أجله وسأله عن حاجته، فقال عبد المطلب بكل ثقة: *"أصبت لي مئتا إبل، فأعطنيها"*. فتعجب أبرهة وقال باحتقار: *"أتكلمني في إبلك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه؟!"*. فأجابه عبد المطلب

**بالعبارة الخالدة التي أخلدها التاريخ: *"إنا رب الإبل، وإن للبيت ربًّا يحميه!"*.**

**ثم أمر عبد المطلب قريشاً بالخروج إلى شعاب الجبال، ووقف عند باب الكعبة آخذي بحلقتها يتضرع لله:**

***لاهمّ إن العبد يمنـ * ـع رحله فامنع حلالكْ**

**لا يغلبنّ صليبهم * ومحالهم غدواً محالكْ**

**وهنا جاء أمر الله الخارق؛ فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل تحمل حجارة من سجيل، فرمتهم بها فجعلتهم كعصف مأكول، ونجا البيت الحرام، ليكون مهبطاً لخير خلق الله محمد صلى الله عليه وسلم، وهو ما سنتتبع تفاصيل مولده ويتمه الطاهر في الفصل القادم!**

**سألت أبي ..... خالد بن ياسين**

# الفصل الثاني

جلس طارق في المساء متمسكاً بكأس شاي دافئ، بينما كانت أضواء غرفته هادئة، وقد ترك أمامه كراساً مفتوحاً يسجل فيه خيوط الحكاية الأولى. وحين دخل أبوه حاملاً بيده كتاباً صفراً عتيقاً، التفت إليه طارق بلهفة وقال:

— لقد أرويت عطشي بقصة أصحاب الفيل وحماية البيت يا أبي، وكيف مهد الله لمكة بهذا الحدث العظيم. ولكنني الآن أقف على أعتاب اللحظة الأكثر شوقاً وترقباً: لحظة مولد النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف عاش طفولته الأولى وهو يحمل لقب "اليتيم" قبل أن يخرج إلى ربيع البادية. حدثني عن كل تفصيلة، ولا تسقط شيئاً!

جلس الأب، وفتح الكتاب على صفحة تتحدث عن المولد النبوي الشريف، وبدا على وجهه إشراق الخشوع، ثم قال:

— اسمع يا طارق، فإن تفاصيل البدايات هي التي تضيء ما بعدها. لقد وُلد سيد ولد آدم في يوم الاثنين، من شهر ربيع الأول، في عام الفيل. وقد اختلف المؤرخون في أي يوم من ربيع الأول كان مولده، فقيل في الثاني منه، وقيل في الثامن، وقيل في العاشر، وقيل في الثاني عشر، وهو الأشهر والأكثر قبولاً عند الجمهور. وقد روت أمه السيدة آمنة بنت وهب رضي الله عنها فيما بعد، وكذلك ما رُوي عن حوادث ليلة مولده؛ فقد رأت نوراً خرج منها أضاء لها قصور الشام، ووافق ذلك إرهاصات كبرى سبقت نبوته أو واكبتها، كارتجاس إيوان كيسرى، وخفوق نار فارس التي لم تكن تخمد قبل ذلك بألف عام، ورؤيا أحبار اليهود والنصارى في كتبهم.

قاطع طارق أباه بشغف بالغ:

— وماذا عن والده عبد الله؟ متى توفي يا أبي؟ وهل رآه النبي صلى الله عليه وسلم؟

أجاب الأب بحزن نبيل:

— لم يره يا بني؛ فقد توفي عبد الله بن عبد المطلب بالمدينة المنورة عند أخواله من بني عدي بن النجار، وكان النبي صلى الله عليه وسلم

**حينها جنيناً في بطن أمه (أو طفلاً رضيعاً على أقوال، لكن الأصح أنه توفي وعبد الله جنين). فخرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذه الدنيا وقد توفي أبوه، فكفله جده العطوف عبد المطلب بن هاشم، الذي كان يحبه ويُدني مجلسه منه ويقول: *"إن لابني هذا لشأناً"*، وكان يفرش له فراشه إلى جنب الكعبة فلا يقرب ذلك الفراش أحد إجلالاً له.**

**— وإذا كان مولده في قريش، وهي مدينة تجارية حارة جافة، فلماذا خرج إلى البادية رضيعاً يا أبي؟ وكيف جرت قصة استرضاعه في بني سعد؟**

**— يا طارق، كانت عادة أشراف مكة وأثريائهم إرسال أبنائهم إلى بوادي بني سعد التماسًا لعدة حكم بالغة: فصاحة اللسان، نقاء الهواء، صحة الأبدان، والبعد عن أوبئة المدينة. فخرجت نسوة بني سعد يبتغين الرضعاء في عام سنة شهباء مجدبة لا تترك شيئاً. ومن بينهن السيدة حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية رضي الله عنها، ومعها زوجها الحارث بن عبد العزى، وكانوا في قافلة من النساء فقيرات محطمات؛ إذ كانت ناقة حليمة العجوز لا تقطر قطرة لبن واحدة، وكان طفلها يبكي طوال الليل من شدة الجوع حتى أصبحوا لا ينامون.**

روت حليمة رضي الله عنها قصتها العجيبة فقالت فيما معناه: *"فلما أقبلنا مكة، عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم على كل نسوة الركب فأبينه؛ لأنه يتيم، وكنا نرجو الكرامة من أب الصبي. فلم تبق امرأة إلا أخذت رضيعاً غيري، فلما فرْغنا، قلت لزوجي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ليس معي رضيع، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه. فقال: لا عليك أن تفعلِي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. فأخذته وما أخذته إلا لأني لم أجد غيره!"*.

هتف طارق منبهراً:

— وماذا حدث بعد أن أخذته يا أبي؟ هل انقلبت حالهم حقاً؟

— انقلبت من الخراب إلى الخصب والريان يا طارق! تقول حليمة: *"فوالله ما هو إلا أن وضعته في حجري حتى أقبل ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي وشرب أخوه حتى روي، ثم ناما وما كنا ننام قبله! وقام زوجي إلى ناقتنا العجوز فإذا إنها لممتلئة لبناً، فحلبنا منها ما شربنا حتى روينا وقام زوجي يشبع، فبات ليلة مباركة. ثم خرجنا راجعين على أتان لي (حمارة)، فوالله لقد قطعت الركب حتى ما تقطعها دابة، حتى إن صواحي ليقلن لي: ويحك يا حليمة، اركبي معنا، أليست هذه أتانك التي أقبلت عليها؟ فأقول: بلى والله، إنه لها! فيقُلن: والله إن لها*

***لشأناً عظيماً! ثم قدمنا منازلنا من أرض بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أخصب منها، وإن كانت غنمي لتسوح جياعاً فتروح شباعاً مُلبنة (تدر لبناً)، وما تدر قطرة لبن واحدة عند غيرنا، فما زلنا نعرف البركة حتى تم له سنتان وفطمنه".***

**سأل طارق بتركيز عميق:**

**— وكم أقام في بني سعد يا أبي؟ وما قصة حادثة شق الصدر التي نسمع عنها في السيرة؟**

**أجاب الأب بنبرة هادئة ووقورة:**

**— أقام في بادية بني سعد حتى بلغ سن الرابعة أو الخامسة. وهناك وقعت حادثتا شق الصدر العظيمتان (الأولى وهو طفل في البادية، والثانية ليلة الإسراء والمعراج). وقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: *"هذا حظ الشيطان منك"*. ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه (جَمعه) ثم أعاده في مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعني ظئره (حليمة)**

**فقالوا: *"إن محمداً قد قُتل!"*، فاستقبلوه وهو منتقع اللون (متغير اللون). فكان أنس رضي الله عنه يقول: *"ولقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره"* !**

**فلما خافت عليه حليمة من هذه الحادثة، ردته إلى أمه آمنة ومعه جده عبد المطلب، فعاش في كنف أمه وجده بضع سنين أخرى. ولكن المحطة المؤلمة الأخرى جاءت وهو ابن ست سنوات؛ حين سافرت به أمه آمنة وعمه عبد المطلب إلى المدينة لزيارة أخوال أبيه (بني عدي بن النجار)، وأقامت هناك شهراً، ثم رجعت به، فلما وصلوا إلى موضع يقال له الأبواء (بين مكة والمدينة)، مرضت أمه آمنة وتوفيت هناك، فدفنت في البواط أو الأبواء، ورجعت به أم أيمن (حاضنته ومربيته) إلى مكة مكفولاً لجده عبد المطلب.**

**هتف طارق متأثراً:**

**— يا الله! يتيم الأب قبل أن يولد، ويتيم الأم وهو في سن السادسة! كم من القسوة واجهت هذا القلب الصغير؟**

**— لكن الله عز وجل كان يعتني به يا طارق، ويحوطه برعايته الخاصة ليكون طاهراً مطهراً. وبعد وفاة أمه، كفله جده عبد المطلب بحنان**

مضاعف، وكان يجلّه تقديراً عجيباً. ولم يمت عبد المطلب إلا والنبي صلى الله عليه وسلم ابن ثماني سنوات، فأوصى به إلى عمه الشفيق أبي طالب بن عبد المطلب (شقيق أبيه عبد الله لأمه وأبيه)، فضمّه أبو طالب إلى ولده وكان يحبه حباً شديداً يفضلّه على أبنائه، فكفله وآواه ودافع عنه طيلة أربعين عاماً من حياته.

سأل طارق بشغف:

— وكيف بدأت ملامح وعيه وشبابه تتبلور في بيت أبي طالب؟ وهل شارك في أعمال الشباب بمكة قبل البعثة؟

— هذا ما سنغوص فيه تفصيلياً في الفصل القادم يا بني؛ حيث ننتقل إلى شباب الطهر، وحلف الفضول، وزواجه المبارك بالسيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، لترى كيف حفظ الله هذا الفتى ليكون أطهر أهل الأرض سيرةً وخلقاً!

**سألت أبي ..... خالد بن ياسين**

# الفصل الثالث

في مساء اليوم التالي، كان المطر ينقر بخفة على زجاج النافذة، مما أضفى على غرفة المكتبة جواً من السكينة والدفء. جلس طارق مستنداً إلى أريكته، وبيده دفتره الذي بات يمتلئ بملاحظات السيرة النبوية. دخل الأب مبتسماً، يحمل فنجانين من القهوة، ووضع أحدهما أمام طارق قائلاً:

— أرى الشوق في عينيك يا طارق لتكملة المسير. لقد تركنا نبينا صلى الله عليه وسلم في الفصل السابق فتىً يافعاً في كنف عمه أبي طالب، فما الذي يدور في ذهنك اليوم؟

اعتدل طارق في جلسته، وأخذ رشفة من قهوته، ثم قال بعينين تلمعان بالفضول:

— أبي، مكة في ذلك الزمان كانت تعج بالفواحش، وشرب الخمر، وعبادة الأصنام، ومجالس اللهو. كيف استطاع شاب في مقتبل عمره، تتفجر

فيه طاقات الشباب، أن يعيش في وسط هذه البيئة الملوثة دون أن يتأثر بها؟ كيف حافظ على طهره ونقائه قبل أن يأتيه الوحي؟

وضع الأب فنجانه بهدوء، ونظر إلى ابنه نظرة مليئة بالإجلال للمقام النبوي، وقال:

— هذا هو التساؤل العظيم يا بني! إن الله جل جلاله لم يكن ليصطفي لحمل أعظم رسالة في الوجود قلباً تلوث بأدران الجاهلية. لقد أحاط الله نبيه صلى الله عليه وسلم بعناية ربانية فائقة، وعصمه من كل سوء منذ نعومة أظفاره. لم يسجد لصنم قط، ولم يشرب خمراً قط، ولم يأكل مما ذُبح على النصب أبداً. بل كانت فطرته تنفر من كل قبيح.

قاطع طارق أباه متسائلاً:

— هل هناك مواقف محددة تروي كيف عصمه الله من مجالس اللهو التي ينجذب إليها الشباب عادة؟

أجاب الأب مؤكداً ومستنداً إلى ما صح في السيرة:

— نعم يا بني، لقد حفظ لنا التاريخ موقفاً عجيباً يرويه النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه. فبينما كان يرعى الغنم مع فتى من قريش، حدثته

**نفسه بما يحدث للشباب من حب استطلاع مجالس اللهو، فقال لرفيقه: *"أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب"*. فلما اقترب من أول دار في مكة سمع عزفاً ودفوفاً، فسأل: ما هذا؟ قيل له: زواج فلان بفلانة. فجلس ينظر، فضرب الله على أذنه النوم، فما أيقظه إلا حر الشمس في اليوم التالي! ثم عاد في ليلة أخرى وحاول الأمر ذاته، ففعل الله به كما فعل في الليلة الأولى، فضرب عليه النوم حتى أيقظته الشمس. ومنذ ذلك اليوم، علم أن الله يصرفه عن هذا، فقال لاحقاً: *"فما هممت بعدها بسوء مما يعمله أهل الجاهلية، حتى أكرمني الله برسالته"*.**

**هتف طارق منبهراً:**

**— سبحان الله! حماية ربانية مباشرة. ذكرت يا أبي أنه كان يرعى الغنم، فهل كان هذا عمله الأساسي في شبابه؟**

**ابتسم الأب وقال:**

**— نعم، العمل الأول لسيد البشرية كان رعاية الغنم. فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لأصحابه يوماً: *"مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الغَنَمَ"*.**

فقالوا له: وأنت يا رسول الله؟ قال: *"نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ"*.

والقراريط أجزاء يسيرة من الدراهم. وفي رعي الغنم يا طارق حكمة إلهية عظيمة؛ فالراعي يتعلم الصبر الطويل، والرحمة بالضعيف، وتفقد الرعية، والقدرة على القيادة وتوجيه القطيع وحمايته من الذئاب. لقد كانت الصحراء بمساحاتها الشاسعة وصمتها المهيب، مدرسة تعد روح النبي صلى الله عليه وسلم لقيادة الأمم لاحقاً.

سأل طارق بتركيز أعمق:

— وكيف كان تفاعله مع أحداث المجتمع المكي؟ هل شاركهم في حروبهم وتحالفاتهم؟ قرأت عن حرب تُدعى "حرب الفجار"، هل شارك فيها؟

أجاب الأب بنبرة وقورة ومفصلة:

— نعم يا طارق، شهد النبي صلى الله عليه وسلم أحداثاً كبرى في شبابه، منها "حرب الفِجَار". وسميت كذلك لأن العرب فجرت فيها، حيث انتهكت حرمة الأشهر الحرم. وقعت هذه الحرب بين قبيلتي كنانة (ومن

ضمنها قريش) وقبيلة قيس عيلان. وكان عمر النبي صلى الله عليه وسلم حينها ما بين الخامسة عشرة والعشرين عاماً.

ولكن، تأمل معي كيف شارك! لم يشارك كقائد يريق الدماء في حرب جاهلية لا ناقة له فيها ولا جمل، بل شارك بدافع المروءة وحماية الأهل، فكان دوره مقتصراً على حماية أعمامه، حيث قال صلى الله عليه وسلم: *"كُنْتُ أُنْبِلُ عَلَى أَعْمَامِي"*. أي أنه كان يرد عنهم نبل العدو (سهامهم) ويناولهم إياها. مشاركة تعكس انتماءه لعشيرته، دون أن يتورط في القتل الجاهلي.

— وماذا عن "حلف الفضول"؟ هل كان له دور فيه؟

تهللت أسارير الأب وقال:

— هذا الحلف هو وسام فخر في تاريخ مكة، وهو من أعظم ما شهده النبي صلى الله عليه وسلم في شبابه. قصة الحلف بدأت حين جاء رجل غريب من زبيد (باليمن) ببضاعة إلى مكة، فاشتراها منه رجل من أشراف مكة وهو العاص بن وائل السهمي، ولكنه ظلمه ولم يعطه حقه. فصعد الرجل المظلوم على جبل أبي قبيس عند شروق الشمس، ونادى بأعلى صوته بأبيات شعرية يستغيث فيها بأهل المروءة من قريش لإنصافه.

فتنادى أشراف قريش وعقلاؤهم، واجتمعوا في دار أندى قريش وأكرمهم، وهو عبد الله بن جدعان. وهناك، تعاهدوا وتحالفوا على أمر عظيم: *"ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم ممن دخلها، إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى تُرد عليه مظلمته"*.

وقد حضر النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحلف العظيم وهو في العشرين من عمره، وكان يفخر به بعد أن أكرمه الله بالرسالة، بل ويقول بكلمات تقطر حباً للعدل: *"لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا، مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، وَلَوْ دُعِيتُ بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ"*.

أومأ طارق برأسه إجلالاً وتدبراً وقال:

— يا لعظمة هذا الموقف! شاب في العشرين ينحاز للعدل ونصرة المظلوم في مجتمع تغلب عليه العصبية. وكيف انعكست هذه الأخلاق على حياته العملية بين الناس؟ كيف أصبح يُلقب بـ "الصادق الأمين"؟

أكمل الأب مستدركاً:

— بعد أن شبّ النبي صلى الله عليه وسلم، اتجه إلى التجارة. ولم يكن تاجراً عادياً يا طارق؛ فقد عرفته أسواق مكة رجلاً لا يحلف كاذباً، ولا يخفي عيباً في سلعة، ولا يخلف وعداً، ولا يغش أحداً. كان يفي بالعهود

ويؤدي الأمانات إلى أهلها، حتى أجمعت قريش قاطبة، على اختلاف بطونها وتنافسها، على تلقيبه بـ "الصادق الأمين". لم يكن هذا مجرد لقب، بل كان اعترافاً جماعياً بتميزه الأخلاقي المطلق في مجتمع يعج بالخداع التجاري.

توقف الأب قليلاً، وارتشف من قهوته، ثم نظر إلى طارق بنظرة ذات مغزى وقال:

— وهذه الأمانة النادرة هي التي قادته إلى أعظم وأبرك زواج في تاريخ البشرية.. زواجه بالسيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

هتف طارق بشغف:

— نعم! هذه هي القصة التي أريد أن أسمع تفاصيلها الدقيقة. كيف التقى بها؟ وكيف تم الزواج؟

أجاب الأب بصوت يملؤه الاحترام لهذا البيت الطاهر:

— السيدة خديجة بنت خويلد كانت امرأة تاجرة، ذات شرف ومال، وأصل كريم. كانت تُلقب في الجاهلية بـ "الطاهرة". وكانت تستأجر الرجال ليتاجروا بمالها في الشام مقابل نسبة من الربح. فلما تناهى إلى سمعها

**ما يتمتع به محمد صلى الله عليه وسلم من صدق الحديث، وعظم الأمانة، وكرم الأخلاق، أرسلت إليه تعرض عليه أن يخرج في تجارة لها إلى الشام، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، على أن يصاحبه غلام لها يُدعى ميسرة.**

**وافق النبي صلى الله عليه وسلم، وخرج بالقافلة نحو بصرى في الشام. وفي الطريق، وتحت ظل شجرة قريبة من صومعة راهب، نزل النبي صلى الله عليه وسلم ليستريح. فسأل الراهب ميسرة: "من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟" قال ميسرة: "هذا رجل من قريش من أهل الحرم". فقال الراهب كلمته العجيبة: *"ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبيٌ"*.**

**باع النبي صلى الله عليه وسلم سلعته واشترى ما أراد، وكانت تجارة مباركة ربحت ضعف ما كانت تربح عادة. وفي طريق العودة، كان ميسرة يراقب النبي صلى الله عليه وسلم عن كثب؛ فرأى من صدقه، وأمانته، وسمو أخلاقه، وشمائله، ما ملك عليه لبه.**

**فلما عادوا إلى مكة، وأدت التجارة أرباحاً مضاعفة، جلس ميسرة إلى سيدته خديجة، فقص عليها ما رأى من أخلاق هذا الشاب العظيم، وما سمعه من الراهب.**

**سأل طارق بلهفة:**

**— وكيف كان رد فعل السيدة خديجة؟ امرأة في مكانتها وثرائها، وقد رفضت أشراف قريش من قبل، كيف تصرفت؟**

**ابتسم الأب وقال:**

**— كانت السيدة خديجة رضي الله عنها امرأة حازمة، عاقلة، ذات بصيرة نافذة. أدركت أن هذا الشاب ليس كغيره من الرجال، وأن الصدق والأمانة اللذين يحملهما أغلى من كل كنوز الأرض. فأرسلت صديقتها نفيسة بنت مُنيَة لجس نبضه.**

**ذهبت نفيسة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالت له: "يا محمد، ما يمنعك أن تتزوج؟" قال: *"ما بيدي ما أتزوج به"*. قالت: "فإن كُفِيتَ ذلك، ودُعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة، ألا تجيب؟" قال: *"فمن هي؟"* قالت: "خديجة". فوافق النبي صلى الله عليه وسلم على الفور، لما يعلمه من شرفها وعفتها.**

**وتم الزواج المبارك. ذهب أعمامه، وعلى رأسهم أبو طالب وحمزة، وخطبوها من عمها عمرو بن أسد. وألقى أبو طالب خطبة النكاح التي بيّن فيها مكانة ابن أخيه، قائلاً: *"إن ابن أخي هذا، محمد بن عبد الله،***

***لا يوزن برجل من قريش إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً، وإن كان في المال قُلّ، فإن المال ظِلّ زائل وأمر حائل".***

**تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم وهو في الخامسة والعشرين من عمره، وهي في الأربعين (على أرجح الأقوال وأشهرها). وكانت رضي الله عنها نِعم الزوجة والسند. لم يتزوج عليها طيلة حياتها، وكانت السكن الذي أوى إليه قلبه، والوزير الأول الذي صدقه حين كذبه الناس. وقد رزقه الله منها كل أبنائه (القاسم، عبد الله، زينب، رقية، أم كلثوم، وفاطمة) باستثناء إبراهيم الذي رُزق به من مارية القبطية.**

**تنهد الأب بعمق، ونظر إلى طارق قائلاً:**

**— لقد كان هذا الزواج يا طارق محطة استقرار عاطفي ونفسي عظيم للنبي صلى الله عليه وسلم، أعدته للمهمة الكبرى التي ستغير وجه التاريخ. ولكن، قبل أن ينزل الوحي، وقع في مكة حدث جلل، كادت فيه القبائل أن تقتتل وتُفنى، لولا حكمة هذا الشاب الذي تدخل في اللحظة الحاسمة.**

**انتبه طارق، وأمسك بقلمه متلهفاً وقال:**

**— أي حدث تقصد يا أبي؟ وماذا فعل النبي صلى الله عليه وسلم؟**

**ابتسم الأب وأغلق كتابه برفق وقال:**

**— إنها قصة تجديد بناء الكعبة، وقرار وضع الحجر الأسود الذي كاد يشعل حرباً أهلية في مكة. وتلك قصة مليئة بالحكمة القيادية، سنفرد لها تفصيلاً خاصاً في الفصل القادم غداً إن شاء الله!**

# الفصل الرابع

في عصر اليوم التالي، كان "طارق" يجلس في شرفة المنزل، يراقب حركة الغيوم في السماء، وعقله لا يزال معلقاً في أزقة مكة القديمة حيث توقف به والده بالأمس. ما إن لمح أباه يقترب وبيده كوبه المعتاد، حتى اعتدل في جلسته مسرعاً، وفتح دفتره قائلاً بلهفة لا تخطئها العين:

— لقد انتظرت هذا المساء بفارغ الصبر يا أبي! بالأمس توقفنا عند زواج النبي صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة رضي الله عنها، ووعدتني أن تحدثني عن الحدث الجلل الذي كادت فيه قريش أن تفنى، وكيف أنقذهم النبي صلى الله عليه وسلم بحكمته. لقد بلغت من العمر الآن خمسة وثلاثين عاماً في تسلسلنا التاريخي، أليس كذلك؟

ابتسم الأب وأخذ مقعده المقابل لطارق، ثم قال بصوت يملؤه الوقار:

**— بلى يا بني، لقد بلغ النبي صلى الله عليه وسلم في هذه المرحلة خمساً وثلاثين سنة، أي قبل البعثة ونزول الوحي بخمس سنوات. وفي هذا العمر، وهو في قمة نضجه وكمال عقله، وقع حدث عظيم في مكة؛ ألا وهو انهيار أجزاء من الكعبة المشرفة وتصدع جدرانها.**

**قاطع طارق مستغرباً:**

**— انهيار الكعبة؟ كيف حدث ذلك؟ ألم تكن مبنية بحجارة قوية؟**

**أجاب الأب مفصلاً ومستنداً إلى الروايات الصحيحة:**

**— الكعبة في ذلك الزمان يا طارق لم تكن كما نراها اليوم. كانت مبنية من حجارة مرصوصة فوق بعضها بدون طين يمسكها (رُضْمًا)، وكان ارتفاعها يزيد قليلاً عن قامة الإنسان (حوالي تسعة أذرع)، ولم يكن لها سقف يغطيها، مما جعل كنوزها التي تُحفظ بداخلها عرضة للسرقة، وقد سُرق كنزها فعلاً. وفوق ذلك، تعرضت مكة لسيل عارم جارف (سيل انحدر من الجبال) ضرب جدران الكعبة فصدّعها، وكانت قبل ذلك قد تعرضت لحريق أوهن حجارتها.**

أدركت قريش أن بيت إبراهيم عليه السلام يوشك على الانهيار، فقرروا قراراً خطيراً: يجب هدم الكعبة وإعادة بنائها من جديد، ورفع جدرانها وتسقيفها.

سأل طارق بتركيز:

— وهل كان هدم الكعبة أمراً سهلاً على قريش وهم يعظمونها أشد التعظيم؟

أجاب الأب بنبرة تعكس هيبة الموقف:

— بل كان أمراً مرعباً لهم! لقد تذكروا ما حلّ بأبرهة وجيشه حين أرادوا هدمها، فخافوا أن ينزل بهم غضب من السماء إذا مسوها بسوء. حتى إنهم بقوا مترددين خائفين، إلى أن تقدم شيخ قريش الوليد بن المغيرة، فأخذ المعول وقال: *"اللهم لم نُرع، اللهم إنا لا نريد إلا الإصلاح"*. ثم هدم جزءاً من الركنين. فانتظرت قريش ليلتها تراقب السماء؛ فقالوا: *"إن أُصيب الوليد لم نهدم منها شيئاً وأعدناها كما كانت، وإن أصبح معافى فقد رضي الله ما صنعنا"*. فلما أصبح الوليد بخير وغدا إلى عمله، اطمأنت قلوبهم واجتمعوا للهدم حتى وصلوا إلى القواعد الأولى (أساس إبراهيم عليه السلام).

**وهنا يا طارق، تجلت نقطة مضيئة وعجيبة في وسط الجاهلية المظلمة؛ لقد اشترطت قريش على نفسها شرطاً عظيماً في بناء الكعبة!**

**انتبه طارق وسأل:**

**— وما هو هذا الشرط يا أبي؟**

**— تعاهدوا ألا يُدخلوا في بناء الكعبة إلا مالاً طيباً حلالاً. فنادوا في بطون قريش: *"يا معشر قريش، لا تُدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيّبًا، لا يدخل فيها مهر بَغِيّ (مال الزنا)، ولا بَيْعُ رِبًا، ولا مَظْلَمَةُ أَحَدٍ من الناس"*.**

**تخيل يا بني! مجتمع يغرق في الربا والمظالم، ولكنه يدرك في قرارة نفسه أن بيت الله طاهر، لا يقبل إلا الطيب. ولهذا السبب، قصرت بهم النفقة الحلال عن إتمام بناء الكعبة على قواعد إبراهيم كاملة، فبنوا الكعبة وتركوا جزءاً منها خارج البناء وهو ما نعرّفه اليوم بـ "حِجْر إسماعيل".**

**هتف طارق متأثراً:**

**— يا لعظمة الفطرة حين تستيقظ في لحظات التعظيم! ولكن من أين أتوا بخشب للسقف وهم في وادٍ غير ذي زرع؟ وكيف شارك النبي صلى الله عليه وسلم معهم؟**

**ابتسم الأب وقال:**

**— لقد ساق الله لهم الرزق؛ فقد تحطمت سفينة للروم في ميناء "الشعيبة" (ميناء مكة القديم قبل جدة)، فذهب الوليد بن المغيرة واشترى خشبها. وكان في مكة نجار قبطي يُدعى "باقوم"، فاستعانوا به ليصنع لهم السقف.**

**أما النبي صلى الله عليه وسلم، فقد كان يعمل بيديه مع قومه كأي رجل منهم، يحمل الحجارة على كتفه الطاهر. وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: *"لَمَّا بُنِيَتِ الكَعْبَةُ، ذَهَبَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وعَبَّاسٌ يَنْقُلانِ الحِجارَةَ"*. وكان صلى الله عليه وسلم يعمل بجد وتواضع، يشارك مجتمعه في الخير والبناء، دون أن يتعالى عليهم وهو من أشرف بيوتهم.**

**سأل طارق وقد بدا عليه الترقب:**

**— كل هذا جميل يا أبي، فأين تكمن الأزمة التي كادت تشعل الحرب؟**

تغيرت نبرة الأب لتصبح أكثر جدية وتوتراً، وقال:

— الأزمة وقعت حين ارتفع البناء ووصلوا إلى موضع "الحجر الأسود". هذا الحجر له قدسية ومكانة عظيمة تفوق الوصف عند العرب. وهنا، توقف العمل، وتنازعت القبائل: من يحظى بشرف وضع الحجر الأسود في مكانه؟ كل قبيلة من قريش أرادت هذا الشرف العظيم لنفسها، واشتد النزاع وتلاسنوا، حتى تحزبوا وتجهزوا للقتال.

يا طارق، لقد وصل الأمر إلى حافة الهاوية. قامت قبيلة "بنو عبد الدار" وقبيلة "بنو عدي"، فجاؤوا بجفنة (وعاء) مملوءة بالدم، وغمسوا أيديهم فيها، وتعاهدوا على الموت وألا يتنازلوا عن حقهم في وضع الحجر، وسُمي هذا الحلف بـ "حلف لَعْقَة الدم".

بقيت قريش على هذا الحال من التوتر والتربص أربع أو خمس ليالٍ! العمل متوقف، والسيوف تكاد تخرج من أغمادها، ومكة التي هي حرم آمن، توشك أن تغرق في بحر من دماء أبنائها.

حبس طارق أنفاسه وقال:

— يا إلهي! حلف بالدم من أجل وضع حجر؟ كيف انقشع هذا الكابوس؟

**أجاب الأب وعيناه تلمعان إعجاباً:**

**— في اليوم الخامس، اجتمعوا في المسجد الحرام للتشاور. فقام أسنّ رجل في قريش (أكبرهم سناً)، وهو أبو أمية بن المغيرة (والد أم سلمة زوج النبي لاحقاً)، فصاح فيهم برأي حكيم لإنقاذ الموقف، وقال:**

***"يا معشر قريش، اجعلوا بَيْنَكُمْ فِيمَا تَخْتَلِفُونَ فِيهِ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ بَابِ هَذَا الْمَسْجِدِ، يَقْضِي بَيْنَكُمْ فِيهِ".***

**استحسنوا الرأي جميعاً، وتعلقت أبصارهم بباب "بني شيبة" (باب المسجد). من سيكون هذا الرجل الذي سيحكم في أخطر قضية شرف عرفتها قريش؟ الدقائق تمر ثقيلة، والقلوب تخفق.**

**وفجأة... ظهر رجل يمشي بخطى واثقة وهادئة. فلما رأوه، انفرجت أساريرهم جميعاً، وهتفوا بصوت واحد يعكس حجم الثقة المطلقة:**

***"هَذَا الْأَمِينُ... رَضِينَا... هَذَا مُحَمَّدٌ!".***

**تنهد طارق بارتياح وقال:**

**— الحمد لله! لقد جاء الرجل المناسب. ولكن يا أبي، المشكلة لا تزال قائمة؛ إن حكم لقبيلة، غضبت البقية واندلعت الحرب. فماذا فعل "الأمين" ليُرضي جميع هذه الرؤوس العنيدة؟**

**ابتسم الأب ابتسامة واسعة تعبر عن فخره بعبقرية النبي، وقال:**

**— هنا تتجلى الحكمة النبوية التي لا تصدر إلا عن عقل مؤيد بالعناية الإلهية. لم ينحز لعشيرته "بني هاشم"، ولم يختر قبيلة دون أخرى. بل طلب رداءً (ثوباً).**

**أُتي بالرداء، فبسطه على الأرض بيده الشريفة، ثم أخذ الحجر الأسود ووضعه في وسط الرداء. ثم نظر إلى سادات قريش المتنازعين، وقال بصوت حاسم يجمع ولا يفرق:**

***"لِيَأْخُذْ كَبِيرُ كُلِّ قَبِيلَةٍ بِطَرَفٍ مِنْ أَطْرَافِ هَذَا الرِّدَاءِ، ثُمَّ ارْفَعُوهُ جَمِيعًا".***

**هتف طارق مبهوراً:**

**— يا لها من عبقرية! لقد جعلهم جميعاً شركاء في الشرف دون أن يقصي أحداً!**

**أكمل الأب بحماس:**

— بالضبط يا بني! تقدم سادات القبائل، وأمسك كل واحد منهم بطرف من الرداء، ورفعوه معاً بقلوب متآلفة بعد أن كانت تتوق للقتال. فلما أوصلوه إلى موضعه في الجدار، تقدم محمد صلى الله عليه وسلم، وأخذ الحجر بيديه الشريفتين، ووضعه في مكانه، ثم بنوا عليه.

وهكذا، بفضل الله ثم بحكمة هذا الشاب البالغ من العمر خمساً وثلاثين سنة، حُقنت دماء قريش، وعاد السلام إلى مكة، وانتهت الأزمة التي كادت تحرق الأخضر واليابس.

صمت الأب قليلاً ليدع طارقاً يتشرب المشهد، ثم أضاف بصوت هادئ وعميق:

— يا طارق، هذه الحادثة لم تكن مجرد حل لخلاف قبلي، بل كانت إرهاصاً وتمهيداً ربانياً ليترسخ في وعي مكة كلها أن "محمداً" هو صمام الأمان، وهو الأمين الذي تُرتضى أحكامه، وهو المؤهل لحمل أمانة أكبر بكثير من وضع حجر في جدار... إنها أمانة الرسالة الخاتمة.

أغلق طارق دفتره برفق، وعيناه تفيضان إجلالاً وتفكيراً، وقال:

**— أبي، أرى الآن بوضوح كيف كان الله يربيه ويصنعه على عينه. كل خطوة، كل لقب، كل موقف كان تمهيداً. إذن، نحن الآن على أعتاب الأربعين.. على أعتاب اللحظة التي غيرت مجرى تاريخ البشرية.**

**أومأ الأب برأسه مؤكداً وقال:**

**— نعم يا بني. لقد اقتربنا من غار حراء، ومن عزلة التأمل، ومن ذلك الصوت السماوي الذي شق صمت الليل قائلاً: "اقْرَأْ"... وهذا هو موعدنا في الفصل القادم، فاستعد لتعيش أعظم ليلة في تاريخ الأرض!**

# الفصل الخامس

خيّم سكون الليل على أرجاء المنزل، وكان "طارق" يقف أمام نافذة غرفته، يتأمل السماء الصافية المرصعة بالنجوم. كان المشهد يبعث في النفس رهبة وهدوءاً غريبين. دخل والده الغرفة بهدوء، فوقف بجانبه وشاركه النظر إلى السماء للحظات، قبل أن يكسر طارق الصمت قائلاً بصوت خافت:

— أبي، وأنا أنظر إلى هذا الكون الشاسع والصمت المهيب، تذكرت أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد حادثة بناء الكعبة بدأ يميل إلى العزلة. لقد بلغ الأربعين من عمره، وهي سن اكتمال العقل والنضج. كيف بدأت الإرهاصات والمقدمات قبل أن ينزل عليه الوحي فجأة؟ ألم تكن هناك علامات تمهد لقلبه هذا الحدث العظيم؟

ابتسم الأب ابتسامة الرضا، ووضع يده على كتف ابنه، ثم توجها نحو مقعديهما في زاوية الغرفة، وقال:

**— صدقت يا طارق، فالله سبحانه وتعالى بحكمته ورحمته لم يفاجئ نبيه صلى الله عليه وسلم بالوحي الثقيل دفعة واحدة دون تمهيد؛ لئلا ينفطر قلبه البشري. لقد استمر التمهيد الرباني ستة أشهر كاملة قبل نزول القرآن!**

**اعتدل طارق في جلسته وسأل بلهفة:**

**— ستة أشهر كاملة؟ وكيف كان هذا التمهيد يا أبي؟**

**أجاب الأب مستنداً إلى أصح الروايات عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:**

**— أول ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي كان "الرُّؤْيَا الصَّالِحَةَ" (أو الصادقة) في النوم. فكان لا يرى رؤيا في منامه إلا جاءت في اليوم التالي واضحة جلية، تماماً كما ينفلق ظلام الليل عن نور الصبح؛ ولذلك وصفتها السيدة عائشة بقولها: *"فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إِلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ"*.**

**ولم يقتصر الأمر على الرؤى يا بني، بل بدأت عجائب الكون تتفاعل معه وهو يمشي في طرقات مكة وشعابها. لقد صح عنه في صحيح مسلم أنه قال: *"إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ،***

***إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الآنَ"*** **. تخيل هذا المشهد: يمشي في شعاب مكة الخالية، فيسمع صوتاً يقول: "السلام عليك يا رسول الله"، فيلتفت يميناً وشمالاً وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجر!**

**هتف طارق مأخوذاً بالوصف:**

**— يا لروعة المشهد ورهبته! شجر وحجر ينطقان بالسلام! وماذا فعل النبي صلى الله عليه وسلم إزاء هذه المتغيرات الروحية؟**

**أجاب الأب بنبرة عميقة:**

**— حُبِّب إليه الخلاء والعزلة. لقد امتلأ المجتمع المكي بضجيج الأصنام، والطواف العاري، وأكل الميتة، والخمر. فنفرت روحه الطاهرة من هذا الواقع المريض، وبدأ يبحث عن مكان يختلي فيه بربه، ويتأمل في هذا الكون العظيم. فاختار "غار حراء".**

**— غار حراء؟ أين يقع؟ وكيف كان يقضي وقته فيه؟**

**— يقع غار حراء في أعلى جبل "النور"، شمال شرق الكعبة. وهو غار صغير جداً، لا يتسع إلا لجلوس رجل أو رجلين، ولكنه يطل إطلالة مباشرة على الكعبة المشرفة. كان النبي صلى الله عليه وسلم يتزود**

بالطعام والشراب (الماء والسويق) من زوجته الوفية خديجة رضي الله عنها، ثم يصعد الجبل الوعر، ويخلو في ذلك الغار الليالي ذوات العدد (أي أياماً وليالي متواصلة)، يتعبد الله على دين أبيه إبراهيم عليه السلام، ويتفكر في خلق السماوات والأرض، فإذا نفد طعامه نزل إلى خديجة فتزود لمثلها.

توقف الأب قليلاً، وأخذ نفساً عميقاً، ثم قال وصوته يرتجف بوقار اللحظة:

— وظل على هذه الحال حتى جاء شهر رمضان... وفي ليلة من لياليه، وتحديداً في العشر الأواخر، وقع الحدث الذي شطر تاريخ البشرية إلى نصفين، ووصل السماء بالأرض!

حبس طارق أنفاسه، واقترب بوجهه نحو أبيه قائلاً:

— صف لي تلك اللحظة يا أبي كما روتها كتب الصحاح.. كيف نزل جبريل؟

أجاب الأب بكلمات متأنية تفيض بالهيبة:

**— كان النبي صلى الله عليه وسلم وحيداً في سكون الغار المظلم، بعيداً عن البشر. وفجأة، ودون سابق إنذار، تجلى له مَلَكٌ عظيم من ملائكة الله، إنه جبريل عليه السلام. لم يأتِ في صورة خيال، بل كان حضوراً حقيقياً مرعباً لقلب بشري لم يعتد ذلك.**

**قال له الملك بكلمة واحدة قاطعة: *"اقْرَأْ"*.**

**فأجاب النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، بصوت يملؤه الصدق والخوف: *"مَا أَنَا بِقَارِئٍ"*.**

**هنا، حدث أمر جسدي عنيف يا طارق. يقول النبي صلى الله عليه وسلم واصفاً تلك اللحظة: *"فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ"*. أي أن جبريل ضمه وعصره عصراً شديداً حتى كادت أنفاسه تنقطع وبلغ منه غاية التعب!**

**ثم أرسله (أي تركه)، وقال له ثانية: *"اقْرَأْ"*.**

**فأجاب النبي وهو يرتجف: *"مَا أَنَا بِقَارِئٍ"*.**

**فأخذه جبريل فغطه الثانية عصراً شديداً حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله وقال: *"اقْرَأْ"*.**

**فأجاب للمرة الثالثة: *"مَا أَنَا بِقَارِئٍ"*.**

**فأخذه فغطه الثالثة، ثم أرسله، وفي هذه المرة تلا عليه جبريل أول آيات نزلت من السماء إلى الأرض، لتكون دستور الأمة الجديد:**

**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ [العلق: 1-5].**

**سأل طارق، وعيناه تلمعان بالدموع تأثراً:**

**— يا الله! عصرة شديدة ثلاث مرات! لماذا يا أبي؟ ألم يكن يكفي أن يتلو عليه الآيات بهدوء؟**

**ابتسم الأب ابتسامة العالم بأسرار السيرة وقال:**

**— سؤال ذكي يا بني! العصرة (الغطّ) كانت لِحِكَمٍ عظيمة؛ أولها: أن يوقن النبي صلى الله عليه وسلم يقينًا لا يخالطه شك أنه في يقظة وحقيقة، وليس في حلم أو خيال؛ فالألم والجهد الجسدي ينفيان وهم المنام. وثانيها: إعداد لجسده الشريف لتلقي "القول الثقيل"؛ فالوحي له ثقل مادي وروحي هائل، كما قال تعالى: إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا.**

وثالثها: تنبيه لأمته أن هذا العلم وهذا الدين لن يُنال بالراحة والدعة، بل لا بد فيه من الجهد والمشقة.

— وماذا حدث بعد أن تلا عليه جبريل هذه الآيات واختفى؟

— رجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده. تخيل المشهد يا طارق: رجل يهبط من جبل وعر في ظلام الليل، يرتعد جسده الطاهر من هول ما رأى، مسرعاً يبحث عن الملاذ والأمان. لم يذهب إلى أعمامه، ولا إلى سادات مكة، بل ذهب إلى أعظم حصن عاطفي ونفسي في حياته: زوجته خديجة بنت خويلد.

دخل عليها وهو ينتفض من الخوف، ويقول بصوت متقطع: *"زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي!"* (أي غطوني ولفوني).

فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوْع (الخوف). فلما هدأ، التفت إلى خديجة، وقص عليها الخبر، وقال لها بصدق البشرية الضعيفة أمام الغيب المجهول: *"لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي"*.

وهنا يا طارق، تجلت عظمة السيدة خديجة رضي الله عنها.. الموقف الذي خلدها في التاريخ كأعظم امرأة ساندت نبياً في لحظة ضعفه البشري.

**انتبه طارق بقوة وسأل:**

**— ماذا قالت له؟ كيف طمأنت رجلاً نزل عليه ملك من السماء؟**

**أجاب الأب بصوت متهدج من روعة الموقف:**

**— لم تقل له اذهب إلى الأطباء، ولم تستخف بخوفه، ولم تزد من هلعه. بل نطقت بكلمات هي قاعدة ذهبية في علم النفس والأخلاق، ربطت فيها بين السلوك الإنساني والجزاء الرباني. قالت له بحزم ويقين وثقة:**

***"كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا..."***

**توقف الأب لحظة، ثم نظر إلى طارق وقال:**

**— انتبه لمبرراتها يا طارق! لماذا لن يخزيه الله؟ هل لأنه من قريش؟ لا. هل لأنه غني؟ لا. استمع إلى حيثيات خديجة، قالت:**

***"...إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ (تساعد العاجز)، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ (تعطي الفقير ما لا يجده عند غيرك)، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ".***

لقد لخصت خديجة قوانين العناية الإلهية؛ فالذي يعيش للناس، ويرحم الضعفاء، ويقف مع المظلومين، يستحيل على الله، أرحم الراحمين، أن يسلمه للجنون أو يخزيه في نهايته! الأخلاق الكريمة يا بني هي درع الإنسان من خزي الدنيا والآخرة.

هتف طارق مأخوذاً بحكمة خديجة:

— يا لرجاحة عقل هذه المرأة! إنها بحق نعم السند. ولكن هل اكتفت خديجة بهذه الكلمات لطمأنته؟

— لم تكتفِ بذلك يا بني، بل تحركت بخطوة عملية سريعة. انطلقت به إلى ابن عمها، وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ. وكان ورقة رجلاً قد تنصر في الجاهلية، يكتب الكتاب العبراني، ويقرأ التوراة والإنجيل، وكان شيخاً كبيراً قد عمي.

قالت له خديجة: "يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ".

فقال ورقة: "يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟"

فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى. فلما سمع ورقة التفاصيل، أدرك ببصيرته وعلمه بالكتب السماوية حقيقة الأمر، فهتف قائلاً:

**"*هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى*". (والناموس هو صاحب السر، ويقصد به جبريل عليه السلام).**

**ثم التفت ورقة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وألقى عليه قنبلة دوت في وجدانه، قال يتمنى الشباب:**

**"*يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا (شاباً قوياً)، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ!*"**

**صُدم النبي صلى الله عليه وسلم من هذه الكلمة! كيف لا، وهو فيهم "الصادق الأمين"، وهو الذي حكّموه قبل سنوات قليلة في دمائهم ووضع الحجر الأسود؟ فسأل ورقة باستنكار وتعجب شديدين:**

**"*أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟!*"**

**فأجابه ورقة بكلمة تلخص سنة الصراع بين الحق والباطل على مر العصور:**

**"*نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا*".**

**ولكن ورقة لم يلبث أن توفي بعد ذلك بوقت قصير.**

صمت طارق طويلاً، يتأمل هذا التحول الدرامي في حياة "الصادق الأمين".. من محبوب قريش وحكمها، إلى نبي موعود بالعداء والإخراج من وطنه الذي يحبه.

قال طارق بصوت هادئ:

— إذن، لقد تأكد للنبي صلى الله عليه وسلم أنه رسول الله، وأن ما رآه هو جبريل. فماذا حدث في اليوم التالي؟ هل نزل الوحي فوراً ليستمر في توجيهه؟

أغلق الأب عينيه للحظة، ثم قال بصوت يكسوه الشجن:

— لا يا بني.. لم ينزل الوحي في اليوم التالي. بل انقطع الوحي! سُميت هذه الفترة بـ "فترة الوحي" (أي انقطاعه واحتباسه). طالت الأيام، والنبي صلى الله عليه وسلم يترقب، وينتظر، ويشتاق شوقاً قاتلاً لرؤية جبريل وسماع كلام الله مرة أخرى. بلغ به الحزن مبلغاً عظيماً، حتى كان يغدو إلى شواهق الجبال حزيناً مهموماً لانقطاع صلة السماء به.

أراد الله من هذا الانقطاع أن يذهب روع النبي، وأن يحل محله الشوق العارم للوحي، ليكون مستعداً لتلقي التكاليف الكبرى القادمة.

نظر الأب إلى طارق، الذي كان معلقاً بكل كلمة، وقال:

— وبعد أيام من هذا الشوق القاتل، والترقب المرير، سيمشي النبي صلى الله عليه وسلم يوماً في مكة، ليسمع صوتاً يناديه من السماء... وحين يرفع رأسه، سيرى ما سيجعله يعود إلى خديجة مرة أخرى طالباً التدثر.. لينزل الأمر الرباني ببدء المعركة الكبرى: معركة الدعوة!

وهذا يا طارق، هو الباب الذي سنفتحه في الفصل القادم؛ "النهوض الصعب ومدرسة دار الأرقم"!

# الفصل السادس

في عصر يوم الجمعة، كان "طارق" يجلس في حديقة المنزل، وأمامه كوبه المفضل وأوراقه المتناثرة التي امتلأت بملاحظات السيرة النبوية. كان صوت العصافير يملأ المكان، لكن عقل طارق كان لا يزال معلقاً في جبال مكة، يعيش حالة "فترة الوحي" وانقطاعه التي توقفوا عندها في الليلة الماضية.

لمح والده يخرج من باب المنزل متجهاً نحوه، فاعتدل طارق في جلسته وقال مستعجلاً قبل حتى أن يجلس أبوه:

— أبي! لقد تركتني البارحة في حالة من الترقب الشديد. تركنا النبي صلى الله عليه وسلم يهيم في شعاب مكة وجبالها، حزيناً، مهموماً، يشتاق لعودة الوحي بعد أن انقطع عنه أياماً طويلة (أو أشهراً على

اختلاف الروايات). كيف عاد الوحي؟ وكيف تحول هذا الرجل المتأمل في الغار إلى قائد يدعو الناس سراً؟

ابتسم الأب ابتسامة هادئة، وسحب كرسياً خشبياً وجلس قبالة ابنه، ثم أخذ نفساً عميقاً يعكس جلال الموقف، وقال:

— صدقت يا طارق، لقد بلغ الشوق بالنبي صلى الله عليه وسلم مبلغه، حتى كان يخرج إلى الجبال باحثاً عن ذلك الصوت السماوي. وفي يوم من الأيام، وبينما هو يمشي في مكة، وقع الحدث الذي استأنف مسيرة السماء إلى الأرض. اسمع كيف يروي النبي صلى الله عليه وسلم هذه اللحظة بنفسه كما ثبت في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: *"بَيْنَا أَنَا أَمْشِي، إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي، فَإِذَا المَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ"*.

قاطع طارق بذهول:

— جالس على كرسي بين السماء والأرض؟! يا له من مشهد مهيب ومفزع للقلب البشري!

أومأ الأب برأسه مؤكداً:

— نعم يا بني، لقد سدّ جبريل عليه السلام الأفق بحجمه العظيم. ولهذا، عاد الخوف البشري الفطري للنبي صلى الله عليه وسلم، وقال: *"فَزُعِبْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي!"*.

فرجع إلى خديجة رضي الله عنها، فتغطى وتدثر بثيابه وهو يرتجف. ولكن هذه المرة، لم ينزل الوحي بكلمة "اقرأ"، بل نزل بكلمات تحمل تكليفاً حركياً ثقيلاً سيغير شكل حياته إلى الأبد. نزل قول الله تعالى:

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ [المدثر: 1-5].

— *"قُمْ فَأَنذِرْ"* ... ماذا تعني هذه الكلمة تحديداً في ذلك السياق يا أبي؟

تغيرت نبرة الأب لتصبح أكثر حزماً وقال:

— هذه الكلمة يا طارق كانت إعلاناً بانتهاء عهد النوم والراحة! قال له ربه: قُم؛ فلا نوم بعد اليوم. قم فأنذر الناس من عذاب الله إن بقوا على الشرك، وكبّر ربك وعظّمه، واهجر الرجز (الأصنام).

بهذه الآيات يا طارق، تحول محمد صلى الله عليه وسلم من "نبي" (أُنبئ بـ اقرأ) إلى "رسول" (أُرسل بـ قم فأنذر). لقد أُلقي على كاهله عبء هداية البشرية جمعاء، وهو وحيد في مكة التي تعج بالأصنام وصناديد الشرك!

سأل طارق بتركيز عميق:

— وحيد في مواجهة قريش بأكملها؟ هذا انتحار بمقاييس البشر! كيف بدأ الدعوة إذن؟ هل صعد الجبل ونادى فيهم فوراً؟

ابتسم الأب بحكمة وقال:

— هنا تتجلى العبقرية النبوية التي تمزج بين التوكل المطلق على الله، والأخذ بالأسباب الدنيوية والسنن الكونية. لم يخرج النبي صلى الله عليه وسلم ليواجه قريشاً علناً في يومه الأول؛ لأن النبتة الجديدة لا تحتمل العواصف العاتية، بل تحتاج إلى دفء وحماية حتى تقوى جذورها. لذلك، بدأ ما يُعرف بـ "مرحلة الدعوة السرية"، والتي استمرت ثلاث سنوات كاملة.

— الدعوة السرية... لمن كان يوجه دعوته في البداية؟

— بدأ بأقرب الناس إليه، وبمن يتوسم فيهم الخير والصدق، ممن يعرفهم ويعرفونه حق المعرفة.

أول من آمن به على الإطلاق، من الإنس والجن، من الرجال والنساء، كانت زوجته وسنده خديجة بنت خويلد رضي الله عنها. لم تتردد لحظة، كيف تتردد وهي التي قالت له قبل أيام "كلا والله لا يخزيك الله أبداً"؟

ثم التفت إلى من يعيش في بيته وتحت رعايته. كان ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فتىً صغيراً في العاشرة من عمره (أو قريباً منها)، يعيش في كنف النبي صلى الله عليه وسلم ليخفف عن أبي طالب عبء مؤنته. دخل عليٌّ يوماً فرأى النبي وخديجة يصليان (وكانت الصلاة ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي قبل فرض الصلوات الخمس). فسأل: "ما هذا؟" فشرح له النبي صلى الله عليه وسلم الإسلام ودعاه إليه. ففكر الفتى الصغير ليلة، ثم جاء في الصباح يعلن إسلامه، ليكون أول من أسلم من الصبيان والشباب.

ثم دعا خادمه ومولاه، الذي كان كابنه، زيد بن حارثة رضي الله عنه. ذلك الشاب الذي خُيّر بين العودة إلى أبيه وعشيرته، وبين البقاء مع محمد صلى الله عليه وسلم وهو عبد، فاختار البقاء معه، فتبناه النبي

قبل تحريم التبني. عرض عليه الإسلام فأسلم فوراً، ليكون أول من أسلم من الموالي.

هتف طارق مندهشاً:

— سبحان الله! زوجته، وابن عمه الصغير، ومولاه! هؤلاء هم أقرب الناس إليه، وهم أدرى الناس بخفايا حياته. لو كان مدعياً . حاشاه . لكان هؤلاء أول من يكذبه لأنهم يرونه في بيته خلف الأبواب المغلقة!

أومأ الأب بإعجاب لتعليق ابنه وقال:

— استنتاج في غاية الروعة يا طارق! صدقت. ثم انتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى دائرته الخارجية، إلى صديقه الأقرب، ورجل قريش المحبوب، التاجر الصدوق، النسّابة العليم بأخبار العرب: أبو بكر الصديق (عبد الله بن أبي قحافة) رضي الله عنه.

هل تعرف كيف كان إسلام أبي بكر؟

— كيف كان؟

— يروي النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فيقول: *"مَا دَعَوْتُ أَحَدًا إِلَى الْإِسْلَامِ إِلَّا كَانَتْ عِنْدَهُ كَبْوَةٌ وَتَرَدُّدٌ وَنَظَرٌ، إِلَّا أَبَا بَكْرٍ؛ مَا عَتَّمَ حِينَ ذَكَرْتُهُ لَهُ وَمَا تَرَدَّدَ فِيهِ"*.

لم يطلب معجزة، ولم يطلب برهاناً. بمجرد أن قال له النبي: "إني رسول الله"، قال أبو بكر: "صدقت". ليكون أول من أسلم من الرجال الأحرار.

ولم يكن إسلام أبي بكر إسلاماً سلبياً يكتفي فيه بنجاة نفسه. بل تحول فوراً إلى "داعية"! استثمر مكانته الاجتماعية وحب الناس لمجالسته، وبدأ يعرض الإسلام سراً على من يثق بهم من رجالات قريش.

وفي أيام قليلة، قطف أبو بكر ثماراً عظيمة، فجاء للنبي صلى الله عليه وسلم بكوكبة من أعظم رجالات التاريخ ليعلنوا إسلامهم:

عثمان بن عفان، الزبير بن العوام، عبد الرحمن بن عوف، سعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم أجمعين. هؤلاء هم عصبة الدعوة الأولى، وكلهم من العشرة المبشرين بالجنة، أسلموا على يد أبي بكر!

— يا لها من كوكبة مذهلة! ولكن يا أبي، مع ازدياد العدد، أين كانوا يجتمعون؟ لا بد أن قريشاً ستلاحظ اجتماعاتهم إذا تمت في بيوت معروفة.

تعدل الأب في جلسته، وكأنه يوشك أن يكشف سراً عسكرياً، وقال:

— هنا يبرز الدهاء النبوي والحنكة الأمنية العالية. لقد اختار النبي صلى الله عليه وسلم مكاناً لا يخطر على بال دهاة قريش ليجعله مركزاً للقيادة، ومدرسة لتربية الأرواح، ومسجداً سرياً... لقد اختار "دار الأرقم بن أبي الأرقم".

سأل طارق بفضول شديد:

— ولماذا دار الأرقم بالذات؟ لماذا لم يختر دار أبي بكر أو دار عمه حمزة مثلاً؟

ابتسم الأب وأشار بيده قائلاً:

— لعدة أسباب عبقرية يا طارق:

أولاً: الأرقم بن أبي الأرقم كان شاباً صغيراً، في السادسة عشرة من عمره تقريباً. وقريش لو أرادت البحث عن مركز لتجمع سري، ستبحث في بيوت كبار السادة والزعماء كأبي بكر، ولن يخطر ببالها بيت فتى مراهق!

ثانياً: الأرقم كان من قبيلة "بني مخزوم". وبنو مخزوم هم لواء التنافس والعداء لبني هاشم، ومنهم أبو جهل (فرعون هذه الأمة). فهل تتخيل قريش أن مركز الدعوة الهاشمية يقع في قلب بيت من بيوت بني مخزوم؟ هذا كان تغطية أمنية مذهلة.

ثالثاً: موقع الدار كان على تلة جبل الصفا، مما يكشف الطريق أمام من في الدار، فيمكنهم رؤية من يقترب منهم من بعيد، فيأخذون حذرهم.

— عبقرية فذة حقاً! وماذا كانوا يفعلون داخل هذه الدار طيلة ثلاث سنوات؟

— كانت دار الأرقم "محضناً تربوياً" يا بني. كان النبي صلى الله عليه وسلم يتلو عليهم ما ينزل عليه من الوحي، ويزكيهم، ويعلمهم التوحيد. في تلك الفترة، كانت السور المكية تتنزل تِباعاً. سور قصيرة الآيات، ذات إيقاع قوي يهز القلوب، تركز على غرس العقيدة، وتصحيح التصور عن الله، ووصف الجنة والنار، وضرب الأمثال بالقرون السابقة.

**نزلت سورة المزمل لتضع المنهج التربوي الشاق لهذه العصبة:**

**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا... إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا [المزمل: 1-5].**

**فأوجب الله عليهم قيام الليل، فكانوا يقومون حتى تتورم أقدامهم، لتربية أرواحهم على تحمل مشاق الدعوة؛ لأن من لا يقوى على مجاهدة نفسه في الليل، لن يقوى على مجاهدة الباطل في النهار.**

**ونزلت سورة الفاتحة لِتُعلمهم كيف يناجون ربهم.**

**كما أن جبريل عليه السلام نزل في بدايات الدعوة فعلّم النبي صلى الله عليه وسلم الوضوء والصلاة. فكان المسلمون إذا أرادوا الصلاة، خرجوا إلى "الشِّعاب" (الوديان الضيقة بين جبال مكة) فرادى أو مثنى، يتخفون عن أعين قريش ليعبدوا الله.**

**— وهل اكتُشف أمرهم خلال هذه السنوات الثلاث؟**

**— في دار الأرقم، لم يُكتشفوا. لكن حدثت بعض الاحتكاكات الفردية في الشعاب. فقد روى ابن إسحاق أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه**

كان يصلي مع نفر من المسلمين في شِعب من شعاب مكة، فظهر عليهم نفر من المشركين فاستهزأوا بهم وعابوا عليهم ما يصنعون، حتى تطور الأمر إلى اشتباك بالأيدي. فضرب سعد بن أبي وقاص أحد المشركين بِلَحْيِ جَمَلٍ (عظم فك الجمل) فشجّه وأسال دمه. وكان هذا أول دم أُريق في الإسلام!

لكن بشكل عام، ظلت الدعوة هادئة، تتسرب إلى قلوب المقهورين والمستضعفين، وإلى بعض عقلاء السادة، كخيوط النور التي تتسلل من تحت الأبواب المغلقة. أسلم بلال بن رباح الحبشي، وعمار بن ياسر ووالداه، وخباب بن الأرت، وعبد الله بن مسعود، وعثمان بن مظعون، وسعيد بن زيد وزوجته فاطمة بنت الخطاب (أخت عمر).

بلغ العدد قريباً من أربعين رجلاً وامرأة، صُقلت أرواحهم بالقرآن، وباتوا مستعدين لتحمل أي عذاب في سبيل هذا الدين.

صمت الأب للحظة، ونظر إلى عيني طارق اللتين كانتا تتابعان كل كلمة بتركيز شديد، ثم قال بصوت يحمل نبرة التحول القادم:

— ولما اكتملت هذه النواة الصلبة، وتأكد الله عز وجل من ثبات جذورها في قلوبهم، جاء الأمر الرباني بانتهاء مرحلة السرية، وبدء المواجهة المفتوحة مع أعتى قوة في الجزيرة العربية. نزل قول الله تعالى:

فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ [الحجر: 94].

تنهد طارق وقال:

— "فاصدع بما تؤمر"! إذن، دقت ساعة الصفر يا أبي، وستبدأ مكة أشرس فصولها في مقاومة هذا النور.

أومأ الأب رأسه إيجاباً وقال:

— نعم يا بني. سيصعد النبي صلى الله عليه وسلم على جبل الصفا ليعلنها مدوية، وستبدأ قريش بصب جام غضبها وتعذيبها على هذه الثلة المؤمنة المستضعفة. وهذا ما سنعيش تفاصيله الدامية والمؤثرة في الفصل القادم، حيث نرى كيف انتصر اللحم الدموي على الحديد والنار!

**سألت أبي ..... خالد بن ياسين**

# الفصل السابع

خيم سكون الليل على الغرفة، ولم يكن يُسمع سوى حفيف خفيف لأوراق الشجر خارج النافذة. كان "طارق" يجلس مترقباً، وقد انعكست على ملامحه جدية بالغة، فالمرحلة التي وصلوا إليها في الليلة الماضية كانت تنذر بعاصفة كبرى. دخل والده يحمل كتاب السيرة، وجلس بهدوء، فرمقه طارق بنظرة متسائلة وبادره القول:

— أبي، لقد نمت البارحة وعبارة فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ترن في أذني. كيف استطاع النبي صلى الله عليه وسلم، وهو فرد واحد ومعه ثلة قليلة مستضعفة، أن يواجه مجتمعاً بأكمله يقدس الأصنام وتتغلغل فيه العصبية القبلية؟ كيف كانت البداية العلنية؟

تنهد الأب تنهيدة عميقة، وفتح كتابه قائلاً:

**— يا طارق، إن الانتقال من السر إلى العلن لم يكن عشوائياً، بل كان بتدرج رباني حكيم. قبل أن يصدع بالدعوة للعرب كافة، أمره الله أن يبدأ بالدائرة الأقرب إليه، فنزل قوله تعالى:**

**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ [الشعراء: 214].**

**— عشيرته؟ تقصد بني هاشم؟ وكيف أنذرهم؟**

**— نعم، بني هاشم وبني المطلب. لقد دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى وليمة في بيته، وكانوا نحو أربعين رجلاً، فيهم أعمامه أبو طالب، وحمزة، والعباس، وأبو لهب. وبعد أن أكلوا، أراد أن يكلمهم، فبادره عمه "أبو لهب" بالكلام وقطع عليه الطريق محذراً إياه من الخروج على دين الآباء، فتفرقوا قبل أن يبلغهم رسالته.**

**لكن النبي صلى الله عليه وسلم لم ييأس، فدعاهم مرة ثانية، ولما فرغوا من الطعام، وقف فيهم خطيباً، فكان مما قال:**

***"إِنَّ الرَّائِدَ لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ، وَاللَّهِ لَوْ كَذَبْتُ النَّاسَ جَمِيعًا مَا كَذَبْتُكُمْ... وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ خَاصَّةً وَإِلَى النَّاسِ كَافَّةً...".***

وهنا، تجلت مواقف أعمامه المتباينة؛ عمه أبو طالب قال له: *"امضِ لما أُمرت به، فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب"*. أما أبو لهب فغضب وقال: *"يا بني عبد المطلب، هذه والله السوأة، خذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيركم!"*.

سأل طارق بتركيز:

— إذن، أبو طالب وفر له الحماية القبلية رغم عدم إسلامه، وأبو لهب أعلن العداء مبكراً. وماذا بعد إنذار العشيرة؟ متى كانت المواجهة العلنية مع قريش كلها؟

أجاب الأب بنبرة تصور هيبة المشهد:

— المواجهة الكبرى حدثت على جبل الصَّفَا. روى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما تفاصيل هذا اليوم المشهود. صعد النبي صلى الله عليه وسلم يوماً على جبل الصفا (وهو الجبل الملاصق للكعبة والذي كان يُستخدم للنداءات العظيمة)، ووضع أصبعيه في أذنيه وصرخ بأعلى صوته بنداء الخطر عند العرب:

*"يَا صَبَاحَاهْ!"*.

ففزعت قريش، وقالوا: من هذا الصائح؟ قالوا: محمد! فاجتمعوا إليه، حتى إن الرجل الذي لم يستطع الخروج، أرسل رسولاً ليرى ما الأمر. فلما اجتمعت بطون قريش أمامه، قال لهم بمنطق عقلي يلامس فطرتهم:

*"أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟"*

فأجابوا بصوت واحد يعكس تاريخه الناصع بينهم: *"نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا"*.

وهنا، ألقى النبي صلى الله عليه وسلم كلمته الفاصلة:

*"فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ"*. ثم بدأ يخص البطون بأسمائها: *"يَا بَنِي عَبْدِ مُطَّلِبٍ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، يَا بَنِي زُهْرَةَ، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا"*.

— وماذا كان رد فعل قريش أمام هذا الإعلان المدوي؟

— صمت الجميع من هول المفاجأة وصدق المتحدث. لكن الصمت لم يدم طويلاً؛ فقد انبرى أشد الناس عداوة له، وهو عمه أبو لهب، ونفض يديه في وجه النبي صلى الله عليه وسلم وقال له أمام كل قريش:

*"تَبًّا لَكَ سَائِرَ اليَوْمِ! أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟"*

**هتف طارق بغضب مكتوم:**

**— عمه؟ أخو أبيه؟ يقول له تباً لك أمام الناس؟ يا لقسوة الموقف على قلب النبي!**

**— نعم يا بني، إنها طعنة من القريب قبل الغريب. ولكن الله جل جلاله لم يترك نبيه يُهان، بل تولى الدفاع عنه من فوق سبع سماوات، فأنزل في التو واللحظة سورة تُتلى إلى يوم القيامة، ترد على أبي لهب بلفظه:**

**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ [المسد: 1-5].**

**ومنذ ذلك اليوم يا طارق، انكسر حاجز الصمت، وبدأ النبي صلى الله عليه وسلم يطوف في أسواق مكة (كعكاظ ومجنة وذي المجاز)، وفي نوادي قريش حول الكعبة، يقول للناس: *"يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُفْلِحُوا"*. وكان أبو لهب يمشي خلفه، يرميه بالحجارة حتى يُدمي عقبيه، ويقول للناس: "لا تطيعوه فإنه صابئ كذاب!".**

— يا إلهي! يرميه بالحجارة وعقبه يدمى؟ أين كانت قريش من هذا؟ ولماذا واجهوه بكل هذا العنف؟ ألم يكونوا يعلمون صدقه؟

اعتدل الأب في جلسته، وأخذ يشرح الأبعاد العميقة للمواجهة:

— قريش كانت تعلم صدقه يا طارق، المشكلة لم تكن في التصديق، المشكلة كانت في "الامتيازات". قريش كانت ترى نفسها سيدة العرب بسبب وجود الأصنام حول الكعبة، فالقبائل تحج إليهم وتتاجر معهم، ودعوة محمد تعني تحطيم هذه الأصنام وبالتالي انهيار مكانتهم الاقتصادية والدينية.

وثانياً: الإسلام جاء بمبدأ "المساواة"؛ فالسيد المطاع كأبي جهل، يصبح في ميزان الله متساوياً مع العبد الحبشي كبلال! هذا كان أمراً لا يستوعبه كبرياء الجاهلية.

فلما رأوا أن دعوته بدأت تنتشر، لجؤوا إلى أسلوب التفاوض والتهديد. ذهبوا إلى أبي طالب مرات يطلبون منه أن يُسكت ابن أخيه أو يتخلى عنه. وفي المرة الثالثة جاؤوه مهددين، فقال أبو طالب للنبي صلى الله عليه وسلم: "يا ابن أخي، أبقِ عليَّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق".

فظن النبي صلى الله عليه وسلم أن عمه سيخذله، لكنه وقف وقفة الجبال الرواسي، وقال بكلمات تُكتب بماء الذهب، توضح استحالة التنازل عن العقيدة:

*"يَا عَمِّ، وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ، أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ، مَا تَرَكْتُهُ".*

ثم دمعت عيناه وبكى، فما كان من أبي طالب إلا أن قال: "اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً".

تنهد طارق بارتياح وقال:

— موقف عظيم من النبي، وحماية شجاعة من أبي طالب. إذن، لم تستطع قريش أن تقتل النبي لوجود حماية بني هاشم. فماذا فعلوا؟

انخفض صوت الأب، وارتسمت على وجهه علامات الألم، وقال:

— هنا بدأ أبشع فصول السيرة المكية يا طارق. لما عجزوا عن الوصول إلى النبي صلى الله عليه وسلم لوجود عشيرته، صبوا جام غضبهم ونار حقدهم على "المستضعفين"؛ أولئك الذين أسلموا وليس لهم قبيلة

تحميهم، كالعبيد، والموالي، والغرباء. لقد فتحوا مسالخ للتعذيب في بطحاء مكة تحت شمس الظهيرة الحارقة.

— حدثني عنهم يا أبي.. كيف صمدوا؟

— خذ على سبيل المثال بِلَالَ بْنَ رَبَاحٍ رضي الله عنه. كان عبداً لأمية بن خلف (أحد أعتى طواغيت قريش). لما علم أمية بإسلام بلال، جن جنونه. كان يخرجه في وقت الظهيرة، حيث تتحول رمال مكة إلى جمر حارق، فيطرحه على ظهره عارياً، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتُوضع على صدره! تخيل يا طارق؛ الاختناق، والحرارة، وثقل الصخرة. ثم يقول له أمية: "لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى".

فهل استسلم بلال؟ لا! كان يجيب بكلمتين فقط، كلمتين هزتا عروش الشرك: *"أَحَدٌ أَحَدٌ... أَحَدٌ أَحَدٌ"*.

كان يقول: "والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها". حتى مر به أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فاشتراه بمال كثير وأعتقه لوجه الله.

وهناك آلُ يَاسِرٍ.. عائلة كاملة مستضعفة: ياسر (الأب)، وسمية (الأم)، وعمار (الابن). كان بنو مخزوم وعلى رأسهم أبو جهل يخرجونهم إلى

الرمضاء ويعذبونهم بعذاب لا يتحمله بشر. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يمر عليهم، ويتألم لألمهم، ولا يملك قوة مادية لإنقاذهم، فكان يمسح على أرواحهم بالبشرى العظيمة قائلاً:

*"صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ، فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الجَنَّةُ"*.

— وماذا حدث لهم يا أبي؟ هل نجوا؟

دمعت عينا الأب وهو يقول:

— أما ياسر، فقد مات تحت وطأة العذاب. وأما زوجته سُمَيَّةُ بِنْتُ خُيَّاطٍ، فقد أغلظت القول لأبي جهل ورفضت أن تسب النبي، فطعنها أبو جهل بحربة في قُبُلها (أسفل بطنها) فقتلها، لتكون أول شهيدة في الإسلام!

وأما الابن عَمَّارٌ، فقد اشتد عليه العذاب، وغطسوه في الماء حتى كاد يختنق، وأجبروه على أن ينطق بكلمة الكفر ويسب النبي، فنطق بها وقلبه يعتصر ألماً لينجو من الموت. فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يبكي، فقال له النبي: *"كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟"* قال: مطمئناً بالإيمان. فقال له النبي يمسح عنه شعور الذنب: *"إِنْ عَادُوا فَعُدْ"*. فنزل فيه تصريح قرآني بالرخصة للمُكره:

مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ [النحل: 106].

وهناك خَبَّابُ بْنُ الأَرَتِّ، الذي كان سيده يحمي له الفحم (الجمر) ثم يطرحه على ظهره العاري، فما يطفئ الجمر إلا شحم ظهره الذي يذوب عليه!

لم يتمالك طارق نفسه، فقاطع أباه بصوت مخنوق:

— يا الله! جمر يطفئه شحم الظهر؟ أين كان الله عنهم يا أبي؟ ألم يطلبوا من النبي أن يدعو الله ليهلك قريشاً وينقذهم؟

أجاب الأب بحكمة:

— بلى يا بني، لقد بلغ بهم الجهد مبلغه. روى البخاري أن خباب بن الأرت جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقال له خباب بألم وضعف: "يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟"

فجلس النبي صلى الله عليه وسلم محمرًّا وجهه (من شدة التأثر)، ولكنه أراد أن يربيهم على أن طريق الدعوات مفروش بالتضحيات، فقال له مبشراً وموجهاً:

*"قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ... وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ".*

سأل طارق متعجباً:

— وهل كان النبي صلى الله عليه وسلم في مأمن من هذا الإيذاء الجسدي بسبب حماية عمه؟ أم طاله شيء منه؟

هز الأب رأسه نفياً بأسى وقال:

— بل ناله الأذى الأكبر يا بني! لم تمنعهم حماية أبي طالب من محاولات إيذائه وإهانته، خاصة عند الكعبة.

**في أحد الأيام، قال أبو جهل لعنه الله: "هل يعفر محمد وجهه في التراب (يعني السجود) بين أظهركم؟ واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته!". فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم يصلي، تقدم أبو جهل ليطأ على عنقه الشريف، فجأة، رأى الناس أبا جهل يرجع إلى الخلف يتقي بيديه شيئاً مرعباً! فسألوه، فقال: "إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة!". فقال النبي لاحقاً: *"لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ المَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا"*.**

**ولكن الموقف الأشد إيلاماً لقلبه وقلب ابنته، ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في صحيح البخاري. قال:**

**بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بِسَلَا جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ (وهي المشيمة والأمعاء والقذارة التي تخرج من الناقة عند ولادتها)، فيضعه على ظهر محمد إذا سجد؟**

**فانبعث أشقى القوم (عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ)، فجاء بتلك القذارة والدماء، وانتظر حتى سجد النبي صلى الله عليه وسلم بين يدي ربه، فوضعها على ظهره الشريف بين كتفيه!**

توقف الأب عن الكلام للحظة، وغص حلقه، ثم تابع:

— تخيل يا طارق.. رسول رب العالمين، أطهر البشر، تُوضع عليه قذارة الإبل وهو ساجد لله. وابن مسعود يرى ذلك ولا يستطيع أن يفعل شيئاً لأنه مستضعف. وبقي النبي صلى الله عليه وسلم ساجداً لا يرفع رأسه، وقريش يضحكون حتى يميل بعضهم على بعض من شدة الضحك والشماتة.

حتى انطلق أحدهم فأخبر ابنته فَاطِمَةَ رضي الله عنها، وكانت جُوَيْرِيَةً (فتاة صغيرة)، فجاءت تسعى وهي تبكي، فرفعت ذلك الأذى عن ظهر أبيها، ثم التفتت إلى صناديد قريش تسبهم وتدعو عليهم، والنبي ساكت لا يتكلم.

فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم صلاته، رفع صوته بالدعاء عليهم (وكانوا يخافون دعاءه في الحرم)، وقال ثلاثاً: *"اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ"*.

ثم سمّاهم باسمائهم: *"اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ، وَعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ"*.

قال ابن مسعود: *"فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالحَقِّ، لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ سَمَّى صَرْعَى يَوْمَ بَدْرٍ (مقتولين)، ثُمَّ سُحِبُوا إِلَى قَلِيبِ بَدْرٍ"*.

سند طارق ظهره إلى الكرسي، ووضع يديه على وجهه متأثراً بعمق، وقال بصوت خافت:

— لم أكن أتخيل أن الثمن كان باهظاً إلى هذا الحد! دم، ودموع، وخنق، وإهانة. مكة تحولت إلى سجن كبير يسحق المؤمنين. كيف استطاعوا الاستمرار؟ ألم يكن هناك مخرج؟ أي مكان يلجؤون إليه ليتنفسوا هواءً نقياً بعيداً عن هذا الخنق؟

أغلق الأب كتاب السيرة برفق، ووضع يده الحانية على ركبة ابنه قائلاً:

— عندما تشتد الأزمات يا بني، وتضيق الأرض بما رحبت، يفتح الله نافذة للفرج من حيث لا يحتسبون. لقد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم أن بقاء المستضعفين في مكة سيؤدي إلى إبادتهم، فكان لا بد من قرار استراتيجي حاسم.. قرار الهجرة الأولى بحثاً عن "ملك عادل لا يُظلم عنده أحد".

**وهذا يا طارق، هو ما سيبحر بنا إلى قارة أخرى، وإلى قصر النجاشي في الحبشة، لندرس في الفصل القادم أول هجرة في الإسلام، وأعظم مناظرة سياسية وعقائدية في تاريخ الدعوة!**

# الفصل الثامن

كانت ليلة هادئة، يقطع سكونها صوت تقليب طارق لصفحات دفتره القديم، يراجع فيه المآسي التي حلت بالمستضعفين في بطحاء مكة. دخل والده الغرفة حاملاً كوبين من الشاي الساخن، فوضع أحدهما أمام طارق، وجلس في مقعده وهو ينظر إلى ابنه نظرة العارف بما يدور في خلده.

بادر طارق أباه قبل أن يرتشف من كوبه:

— أبي، بالأمس تركتني أتقلب على جمر مكة مع المستضعفين. بلال تحت الصخرة، وعمار يُغطس في الماء، وسمية تُطعن... كيف احتمل النبي صلى الله عليه وسلم رؤية أصحابه يُطحنون أمام عينيه وهو لا يملك قوة مادية لمنع قريش؟ ألم يفكر في حل جذري لإنقاذ هذه النواة المؤمنة قبل أن تُباد؟

أخذ الأب رشفة من شايه، ثم وضع الكوب بهدوء وقال بصوت يفيض بالحكمة:

— يا طارق، إن القائد العظيم لا يكتفي بالتعاطف والمواساة، بل يبحث عن مخارج استراتيجية تنقذ أتباعه وتحافظ على فكرته. لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء، وأنه لا يقدر على منعهم، نظر في خريطة العالم المحيط به.

لم يختر التوجه شمالاً نحو الشام؛ لأنها تحت نفوذ الروم وحلفائهم من الغساسنة، ولم يختر شرقاً نحو فارس؛ لعدائها للدين، ولم يختر قبائل العرب المجاورة؛ لأن قريشاً ستحرضهم، بل وجه بوصلته نحو بحر القلزم (البحر الأحمر)، إلى قارة أخرى.. إلى "الحَبَشَة".

— الحبشة؟ لماذا الحبشة بالذات يا أبي؟ أليست بلاداً نصرانية بعيدة عن بيئة العرب لغةً وثقافة؟

ابتسم الأب إعجاباً بالسؤال وقال:

— هنا تتجلى العبقرية السياسية للنبي صلى الله عليه وسلم. لقد اختار الحبشة لثلاثة أسباب رئيسية:

**أولاً: العائق الجغرافي؛ فالبحر يفصل بينها وبين قريش، مما يجعل المطاردة العسكرية صعبة.**

**ثانياً: أنها أرض نصرانية أهل كتاب، وأهل الكتاب أقرب مودة للمؤمنين من عبدة الأوثان.**

**ثالثاً، وهو الأهم: الاستخبارات النبوية الدقيقة عن حاكمها. لقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه كلمة تُكتب بماء الذهب في علم السياسة واللجوء:**

***"لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى أَرْضِ الحَبَشَةِ، فَإِنَّ بِهَا مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، وَهِيَ أَرْضُ صِدْقٍ، حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ".***

**العدل يا بني هو الملاذ الآمن لأي دعوة مضطهدة!**

**— وكيف كانت الهجرة الأولى؟ من الذي خرج؟ وهل علم بهم أهل مكة؟**

**— في شهر رجب من السنة الخامسة للبعثة، تسللت في جنح الظلام أول مجموعة من المسلمين تفر بدينها. كانوا اثني عشر رجلاً وأربع نسوة. تسللوا خفية حتى وصلوا إلى ميناء "الشُّعَيْبَة" على البحر الأحمر، وهناك قيض الله لهم سفينتين تجاريتين حملتهم إلى الحبشة بنصف**

دينار. ولما علمت قريش بخروجهم، أرسلت في إثرهم فرساناً إلى الساحل، ولكنهم وصلوا وقد أبحرت السفينتان، ففشلت المطاردة.

كان من بين هؤلاء المهاجرين شخصيات عظيمة، كعثمان بن مظعون، وعبد الرحمن بن عوف. ولكن الحدث الأبرز كان هجرة عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، ومعه زوجته، بضعة قلب النبي صلى الله عليه وسلم، ابنته رُقَيَّةُ رضي الله عنهما.

لقد وقف النبي صلى الله عليه وسلم يودع ابنته وصهره، وقال فيهما كلمة تاريخية: *"إِنَّهُ لَأَوَّلُ مَنْ هَاجَرَ إِلَى اللَّهِ بِأَهْلِهِ بَعْدَ لُوطٍ"*.

تنهد طارق متأثراً:

— تخيل أباً يودع ابنته لتعبر البحر إلى قارة مجهولة فراراً بالدين! يا لها من تضحيات. وهل استقروا هناك طويلاً يا أبي؟

— لم تدم هجرتهم الأولى طويلاً يا طارق، بل عادوا بعد بضعة أشهر (في شهر شوال من نفس العام). وسبب عودتهم قصة عجيبة جداً تتعلق بسورة قرآنية عظيمة أحدثت زلزالاً في مكة!

انتبه طارق واعتدل في جلسته، وفتح دفتره قائلاً:

— زلزال في مكة؟ أي سورة هذه وماذا حدث؟

أجاب الأب بنبرة تفيض بالرهبة:

— إنها سُورَةُ النَّجْمِ. في شهر رمضان من تلك السنة، خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الحرام، وكان مليئاً بصناديد قريش وساداتهم. فجأة، وبدون مقدمات، وقف النبي صلى الله عليه وسلم وبدأ يقرأ سورة النجم بصوته العذب المهيب:

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى [النجم: 1-4].

كانت هذه أول سورة يعلن بها النبي صلى الله عليه وسلم جهراً في الحرم دون أن يجرؤ أحد على مقاطعته. لماذا؟ لأن جلال السورة، وقوة إيقاعها، وروعة بيانها، أخذت بألباب قريش. سلب القرآن عقولهم، فأنصتوا كأن على رؤوسهم الطير، وهم أرباب الفصاحة والبيان.

استمر النبي يقرأ، وقلوبهم ترتجف مع كل آية، حتى وصل إلى الآية الخاتمة التي تأمر بالسجود لله وتصعق الكبرياء:

**فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩ [النجم: 62].**

**فلما قرأها النبي صلى الله عليه وسلم، سجد سجدة التلاوة، فماذا حدث؟**

**روى الإمام البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن سحر البيان القرآني غلب عنادهم، *"فَسَجَدَ المُسْلِمُونَ وَالمُشْرِكُونَ وَالجِنُّ وَالإِنْسُ!"*.**

**نعم يا طارق! سجد صناديد قريش جميعاً خلف النبي صلى الله عليه وسلم من هول ما سمعوا، إلا رجلاً واحداً وهو "أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ" (أو الوليد بن المغيرة في رواية)، فقد أخذ كفاً من تراب ورفعه إلى جبهته وقال: يكفيني هذا تكبراً وعناداً.**

**هتف طارق مأخوذاً بالمشهد:**

**— يا الله! قريش تسجد خلف رسول الله؟ هذا يعني أنهم أسلموا!**

**ابتسم الأب ابتسامة حزينة وقال:**

— هذا بالضبط ما ظنه الناس! طارت الشائعات بسرعة البرق في الجزيرة العربية حتى وصلت إلى الحبشة: "قريش أسلمت، وصالحت محمداً!".

فلما سمع المهاجرون في الحبشة هذا الخبر، فرحوا فرحاً شديداً، وقرروا العودة إلى مكة. ولكنهم لما اقتربوا من مشارف مكة، اكتشفوا الحقيقة المرة؛ قريش لم تُسلم، بل لما أفاقت من سكرة القرآن وسجدتها، ندموا ندماً شديداً، وزادوا في تعذيب المسلمين لينفوا عن أنفسهم تهمة الميل لمحمد!

— وماذا فعل المهاجرون العائدون؟ هل رجعوا إلى الحبشة أم دخلوا مكة؟

— لم يستطيعوا العودة، فدخلوا مكة، ولكن كل واحد منهم دخل في "جوار" (حماية) رجل من سادات المشركين، أو دخل مستخفياً. وهنا يا طارق، تبرز قصة نفسية عظيمة للصحابي الجليل عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ رضي الله عنه.

لقد دخل عثمان مكة في جوار سيد من ساداتها وهو "الوليد بن المغيرة"، فكان يمشي آمناً لا يمسه أحد بسوء. ولكنه كان يرى إخوانه المسلمين يُضربون ويُعذبون، فتحركت في قلبه عزة المؤمن ونخوته، وقال لنفسه:

"والله إن غُدُوّي ورواحي آمناً بجوار رجل من أهل الشرك، وإخواني وأهل ديني يلقون من البلاء ما لا ألقى، لَنَقْصٌ كَبِيرٌ فِي نَفْسِي!".

فذهب إلى الوليد بن المغيرة وقال له: "يا أبا عبد شمس، وفت ذمتك، وقد رددت إليك جوارك". فقال له الوليد: "لِمَ يا ابن أخي؟ لعله آذاك أحد من قومي؟" قال: "لا، ولكني أرضى بجوار الله، ولا أريد أن أستجير بغيره". فقال الوليد: "فانطلق إلى المسجد فاردد عليَّ جواري علانية كما أجرْتُك علانية".

ففعلا ذلك. وما هي إلا أيام حتى اشتبك عثمان في حوار مع الشاعر لبيد بن ربيعة، فقام رجل من قريش فلطم عين عثمان بن مظعون حتى اخضرت (تورمت). والوليد يرى ذلك، فقال له: "أما والله يا ابن أخي، إن كانت عينك لفي غنى عما أصابها، وقد كنت في ذمة منيعة!".

فأجابه عثمان بكلمة تكتب بماء الذهب: *"بَلْ وَاللَّهِ إِنَّ عَيْنِي الصَّحِيحَةَ لَفَقِيرَةٌ إِلَى مِثْلِ مَا أَصَابَ أُخْتَهَا فِي اللَّهِ، وَإِنِّي لَفِي جِوَارِ مَنْ هُوَ أَعَزُّ مِنْكَ وَأَقْدَرُ يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ!"*.

تأثر طارق تأثراً بالغاً، ومسح على عينيه وقال:

— يا لصلابة هذا الإيمان! رفض الحماية ليشارك إخوانه الألم! ولكن يا أبي، إذا كان العذاب قد اشتد بعد سورة النجم، فماذا كان الحل؟

— الحل كان "الهجرة الثانية إلى الحبشة". ولكن هذه المرة، أدرك النبي صلى الله عليه وسلم أن الأمر يحتاج إلى هجرة جماعية واسعة لحماية أكبر قدر من المسلمين. فخرجوا متسللين، وكان عددهم هذه المرة كبيراً؛ قرابة ثلاثة وثمانين رجلاً، وثماني عشرة أو تسع عشرة امرأة. وكان قائدهم والمتحدث باسمهم هو ابن عم النبي، الشاب المفوه والذكي: جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه.

— وهل تركتهم قريش يهنؤون في الحبشة هذه المرة؟

تغيرت ملامح الأب، واعتدل في جلسته، وبدأ يسرد بأسلوب يحبس الأنفاس:

— هنا بدأت المعركة الدبلوماسية الأشرس في تاريخ الدعوة المكي. قريش شعرت بالرعب! تخيل أن يتشكل كيان معارض لهم في دولة قوية كالحبشة، قد يتحالفون مع النجاشي ويعودون لغزو مكة!

قررت قريش إرسال أدهى دُهاتها، وأمكر رجالها، وهو عَمْرُو بْنُ العَاصِ (قبل إسلامه)، ومعه عبد الله بن أبي ربيعة. وجمعوا هدايا نفيسة جداً من "أَدَمِ مَكَّةَ" (جلودها الفاخرة التي يحبها النجاشي وبطارقته).

انطلق عمرو بن العاص بخطة شيطانية محكمة. لم يذهب للنجاشي مباشرة، بل ذهب إلى البطارقة (القساوسة والوزراء) أولاً. أعطى كل بطريق هديته ورشاه بها، وقال لهم: *"إِنَّهُ قَدْ صَبَا إِلَى بَلَدِ مَلِكِكُمْ غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ، فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ... فَإِذَا كَلَّمْتُ المَلِكَ فِيهِمْ، فَأَشِيرُوا عَلَيْهِ أَنْ يُسَلِّمَهُمْ إِلَيَّ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُكَلِّمَهُمْ"*. فوافق البطارقة المرتشون.

وفي اليوم التالي، دخل عمرو على النجاشي، فقدم له الهدايا النفيسة ففرح بها، ثم ألقى عمرو خطبته السياسية الماكرة:

*"أَيُّهَا المَلِكُ، إِنَّهُ قَدْ ضَوَى (لجأ) إِلَى بَلَدِكَ غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ، فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ، وَجَاؤُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتُمْ. وَقَدْ بَعَثَنَا إِلَيْكَ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ لِتَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ"*.

وهنا، تنحنح البطارقة من حول النجاشي (تنفيذاً للخطة) وقالوا بصوت واحد: "صَدَقَا أَيُّهَا المَلِكُ! قَوْمُهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا، فَأَسْلِمْهُمْ إِلَيْهِمَا".

**حبس طارق أنفاسه وقال بقلق:**

**— يا للخطة الماكرة! لقد حاصروه سياسياً ودينياً! ماذا فعل النجاشي أمام هذا الضغط؟**

**ابتسم الأب ابتسامة المنتصر وقال:**

**— ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم "مَلِكٌ لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ"؟**

**غضب النجاشي غضباً شديداً من حاشيته، وضرب بيده، وقال كلمته التي أسقطت مؤامرة قريش:**

***"لَا هَا اللَّهِ، إِذَنْ لَا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْهِمَا! قَوْمٌ جَاوَرُونِي، وَنَزَلُوا بِلَادِي، وَاخْتَارُونِي عَلَى مَنْ سِوَايَ... لَا أُسْلِمُهُمْ حَتَّى أَدْعُوَهُمْ فَأَسْأَلَهُمْ عَمَّا يَقُولُ هَذَانِ فِيهِمْ، فَإِنْ كَانُوا كَمَا يَقُولَانِ أَسْلَمْتُهُمْ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَنَعْتُهُمْ".***

**أرسل النجاشي يستدعي المسلمين. فلما وصلهم المندوب، اجتمعوا وتشاوروا: ماذا نقول للملك؟ فاتفقوا على الصدق المطلق: "نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم، كائناً في ذلك ما هو كائن!".**

**دخل المسلمون بلاط الملك. عمرو بن العاص يقف بثقة، والبطارقة مصطفون، والنجاشي يجلس على عرشه.**

**سأل النجاشي بصوت مهيب: *"مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ، وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي وَلَا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الأُمَمِ؟"*.**

**فتقدم الشاب العظيم، جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه، وألقى خطبة تُعد من أعظم وثائق المقارنة بين الجاهلية والإسلام في تاريخ البشرية. اسمع يا طارق كل حرف فيها، لأنها تلخص رسالة محمد صلى الله عليه وسلم!**

**قال جعفر بشموخ وثقة:**

***"أَيُّهَا المَلِكُ! كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ؛ نَعْبُدُ الأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ المَيْتَةَ، وَنَأْتِي الفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الجِوَارَ، وَيَأْكُلُ القَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ...***

***فَبَقِينَا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ. فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ.***

***وَأَمَرَنَا: بِصِدْقِ الحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الجِوَارِ، وَالكَفِّ عَنِ المَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ. وَنَهَانَا عَنِ الفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ اليَتِيمِ...***

***فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا... فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَضَيَّقُوا عَلَيْنَا، خَرَجْنَا إِلَى بِلَادِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا المَلِكُ!".***

**دمعت عينا طارق وهو يستمع لخطبة جعفر، وقال:**

**— يا لروعة البيان! لقد عرّى قريشاً، وأظهر جوهر الإسلام الإنساني العظيم. فماذا كان رد النجاشي؟**

**— تأثر النجاشي تأثراً بالغاً، فهو رجل متدين، وقال لجعفر: *"هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟"***

**قال جعفر: "نعم".**

**قال النجاشي: *"فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ".***

**وهنا يا طارق، تجلت العبقرية النبوية في تربية جعفر. لم يقرأ آيات عن القتال، ولا آيات عن أحكام فقهية. بل نظر إلى الملك النصراني والبطارقة،**

وقرأ مطلع سُورَةِ مَرْيَمَ؛ تلك السورة التي تفيض بالرحمة، وتروي قصة زكريا ويحيى، ثم تنتقل إلى مشهد العذراء البتول مريم وحملها بعيسى عليه السلام بأسلوب يهز القلوب.

قرأ جعفر بصوته الخاشع:

كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا... [مريم: 1-3].

واستمر يقرأ، حتى وصل إلى قصة مريم.

يقول الصحابة الذين حضروا المشهد: *"فَوَاللَّهِ لَبَكَى النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ (بلل لحيته بالدموع)، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ"*.

ثم التفت النجاشي إلى عمرو بن العاص، وقال كلمته التاريخية:

*"إِنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ عِيسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ! انْطَلَقَا (لعمرو وصاحبه)، فَوَاللَّهِ لَا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمَا أَبَدًا"*.

**هتف طارق يقبض بيده على الهواء انتصاراً:**

**— الله أكبر! انهزمت خطة قريش، وعاد عمرو بن العاص خائباً!**

**ابتسم الأب بخبث تاريخي وقال:**

**— تمهل يا بني، ألم أقل لك إن عمراً كان من أدهى دهاة العرب؟ لما خرجا من عند الملك، التفت عمرو إلى صاحبه وقال متوعداً: *"وَاللَّهِ لَآتِيَنَّهُ غَدًا بَعِيبُهُمْ عِنْدَهُ بِأَمْرٍ أَسْتَأْصِلُ بِهِ خَضْرَاءَ هُمْ! وَاللَّهِ لَأُخْبِرَنَّهُ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ!"*.**

**وفي اليوم التالي، عاد عمرو للنجاشي وقال: *"أَيُّهَا المَلِكُ، إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَوْلًا عَظِيمًا (أي ينكرون ألوهيته وبنوته لله)، فَأَرْسِلْ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلْهُمْ"*.**

**فأرسل النجاشي إليهم. ولما علم المسلمون بمكيدة عمرو، خافوا خوفاً شديداً، فالمسألة الآن تمس عقيدة الملك نفسه! فاتفقوا على أن يقولوا ما قاله الله، لا يزيدون حرفاً ولا ينقصون.**

**دخلوا، فسألهم النجاشي بانزعاج: *"مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؟"*.**

**فوقف جعفر، الأسد الهاشمي، وقال بثقة المؤمن الذي لا يداهن في عقيدته:**

***"تَقُولُ فِيهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا صلى الله عليه وسلم: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَرُوحُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ العَذْرَاءِ البَتُولِ".***

**سكت البلاط كله... ماذا سيفعل الملك أمام قوم ينفون الألوهية عن عيسى عليه السلام؟**

**ضرب النجاشي يده إلى الأرض، وأخذ عُوداً (خشبة صغيرة)، ثم رفعه وقال:**

***"يَا مَعْشَرَ الحَبَشَةِ... وَاللَّهِ مَا عَدَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا قَالَ هَذَا الرَّجُلُ، قَدْرَ هَذَا العُودِ!".***

**فتناخرت البطارقة (أصدروا أصوات استنكار من أنوفهم غضباً). فالتفت إليهم النجاشي بغضب ملكي وقال: *"وَإِنْ نَخَرْتُمْ وَاللَّهِ!"*.**

**ثم التفت إلى المسلمين بابتسامة الحماية والسلام وقال:**

***"اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ سُيُومٌ (أي آمنون) بِأَرْضِي، مَنْ سَبَّكُمْ غَرِمَ... مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي دَبْرًا (جبلاً) مِنْ ذَهَبٍ وَأَنِّي آذَيْتُ رَجُلًا مِنْكُمْ".***

**ثم أمر برد الهدايا لعمرو بن العاص قائلاً: *"رُدُّوا عَلَيْهِمَا هَدَايَاهُمَا فَلَا حَاجَةَ لِي بِهَا، فَوَاللَّهِ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنِّي الرِّشْوَةَ حِينَ رَدَّ عَلَيَّ مُلْكِي فَآخُذَ الرِّشْوَةَ فِيهِ"*.**

**تنهد الأب تنهيدة الارتياح، ونظر إلى طارق الذي كانت ملامحه تشع فرحاً، وقال:**

**— وهكذا يا طارق، خُذلت قريش، وعاد عمرو بن العاص يجر أذيال الهزيمة الدبلوماسية. واستقر المسلمون في الحبشة في خير دار مع خير جار. ولكن...**

**انتبه طارق لـ "ولكن" الأب، وسأل بقلق:**

**— ولكن ماذا يا أبي؟**

**— ولكن الأخبار التي وصلت إلى مكة بهزيمة عمرو بن العاص، أشعلت نار الغضب والجنون في عقول قريش. قرروا أن ينتقموا من النبي صلى الله عليه وسلم شخصياً ومن بني هاشم جميعاً، وانتقلوا من مرحلة التعذيب الفردي، إلى مرحلة الحصار الشامل والإبادة الجماعية!**

**أغلق الأب الكتاب بهدوء وقال:**

**— وهذا يا بني ما سنفتح صفحاته الدامية غداً، في فصل "حصَار الشِّعْبِ وَعَامِ الحُزْنِ"... فاستعد لمرحلة هي من أقسى ما مر على قلب النبي صلى الله عليه وسلم في حياته كلها!**

# الفصل التاسع

حلّ مساءٌ آخر حاملاً معه هدوءاً خفيفاً، فيما كان "طارق" يجلس قبالة والده في غرفتهما الدافئة، وأوراقه مفتوحة على منضدته. نظر طارق إلى والده وقال وعيناه تشعان ترقباً:

— أبي، في الليلة الماضية رأينا كيف فشلت قريش في استرداد المهاجرين من الحبشة وهُزمت في بلاط النجاشي. كيف انعكست هذه الهزيمة النكراء على الداخل المكي؟ وكيف برز دور أسد الله حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه في حماية النبي صلى الله عليه وسلم وسط هذا التوتر المحتدم؟

ابتسم الأب ابتسامة ملؤها الإجلال والتأثر، ثم أخذ نفساً عميقاً وقال:

— يا بني، لقد جن جنون قريش حين عاد سفراؤهم خائبين من الحبشة. ووصل طغيان رئيس كفار مكة أبي جهل (عمرو بن هشام) إلى ذروته. وفي يوم من الأيام، بينما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس

عند الصفا، مرّ به أبو جهل، فآذاه وسبّه وشتمه شتماً قبيحاً، وشارك في نيل شرفه ودينه، بينما كان النبي صلى الله عليه وسلم ساكتاً لا يكلمه، ثم قام ورجع إلى بيته.

وكانت هناك مولاة (خادمة) لعبد الله بن جدعان في مسكنها على الصفا ترى ما صنع أبو جهل وتسمع سبابه.

قاطع طارق أباه بلهفة:

— أين كان حمزة بن عبد المطلب في ذلك الوقت يا أبي؟

أجاب الأب بنبرة تفيض بالحرارة والحماس:

— كان حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ رضي الله عنه راجعاً من الصيد، وكان متوشحاً قوسه، وشاباً قوياً، أزهر، شجاعاً، تهابه قريش ولا يجترئ عليه أحد. وكان إذا رجع من صيده لم يرجع إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ويحيي مجالس قريش.

فلما مر بالمولاة عند الصفا، قالت له: "يا أبا عمارة! لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد من أبي الحكم بن هشام (أبي جهل) قبل قليل! وجده هاهنا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد!".

احمرّ وجه حمزة من الغضب الشديد، واعتورته النخوة الهاشمية والغيرة على ابن أخيه الذي يعلم صدقه وأمانته. فخرج سريعاً لا يقف على أحد، ومضى رأساً نحو المسجد الحرام.

سأل طارق بتركيز:

— وماذا فعل حين دخل المسجد الحرام وجد أبا جهل جليساً بين قومه؟

أكمل الأب بأسلوب يجسد الموقف التاريخي:

— دخل حمزة المسجد، ورأى أبا جهل جالساً في قومه من بني مخزوم. فما كان من حمزة إلا أن مشى إليه بخطى كالرعد، حتى إذا وقف على رأسه، رفع قوسه المجلدة، وضربه بها على رأسه ضربة شجّت رأسه شجة منكرة أسال منها الدماء!

ثم صاح فيه حمزة بصوت زلزل القوم جميعاً:

*"أَتَسُبُّهُ وَأَنَا عَلَى دِينِهِ؟! أَقُولُ مَا يَقُولُ، فَرُدَّ ذَلِكَ عَلَيَّ إِنِ اسْتَطَعْتَ!".*

فثارت رجال من بني مخزوم إلى حمزة ليعينوا أبا جهل، لكن أبا جهل - الذي كان يعلم شجاعة حمزة وحزمه وخوفاً من اندلاع حرب بين بني

مخزوم وبني هاشم . قال لقومه: "دعوا أبا عمارة، فإني والله لقد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً!".

أومأ طارق برأسه مأخوذاً بالموقف:

— يا لها من ضربة شجاعة أعزت نبي الله! وهل استقر الإسلام في قلب حمزة فوراً بعد تلك الضربة يا أبي؟

— نعم يا بني؛ رجع حمزة إلى بيته، ثم جاءه الشيطان يوسوس له: "أنت سيد قريش، أسرعت فصَبَوْت وتركت دين آبائك؟"، فبات ليلة لم يبت بمثلها قط من شدة التفكير، ثم بات يدعو الله: "اللهم إن كان هذا رشداً فاجعل كماله في قلبي!". فلما أصبح، غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقص عليه أمره، فتلا عليه النبي صلى الله عليه وسلم آيات من القرآن، فشرح الله صدره، وقال: "أشهد أنك لرسول الله، فأظهر دينك يا ابن أخي!".

ولم تمضِ سوى أيام قليلة حتى انضم إلى صفوف المسلمين بطل آخر زلزل مكة بإسلامه، إنه عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه.

هتف طارق بشغف:

**— عمر بن الخطاب! قصة إسلامه من أشهر قصص السيرة، فكيف وقعت بالتفصيل الموثق؟**

**أجاب الأب بنبرة جليلة:**

**— كان عمر رضي الله عنه رجلاً ذا شكيمة وقوة، شديد الأذى على المسلمين. وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد دعا ربه بدعاء خالد في الأثر:**

***"اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلاَمَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ: بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ".***

**في يوم من الأيام، خرج عمر متوشحاً سيفه يريد قتل النبي صلى الله عليه وسلم لإراحة قريش منه. فلقيه في الطريق "نعيم بن عبد الله" (وكان قد أسلم سراً)، فقال له: أين تريد يا عمر؟ قال: أريد محمداً هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش فأقتله!**

**فقال له نعيم محاولاً ثنيه: "والله لقد غرّتك نفسك من نفسك يا عمر! أترى بني عبد مناف يتركونك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟".**

قال: "وأي أهل بيتي؟"، قال: "ختنك (زوج أختك) وابن عمك سعيد بن زيد، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلموا وتابعوا محمداً على دينه!".

انطلق عمر كالشرار المتطاير حتى أتى دار أخته فاطمة، وكان عندهم خَبَّابُ بْنُ الأَرَتِّ يعلمهم سورة "طه" من صحيفة معهم. فلما سمعوا صوت عمر، اختبأ خباب في البيت، وأخفت فاطمة الصحيفة.

سأل طارق بلهفة:

— وماذا صنع عمر حين دخل؟

— دخل عمر وقال بغضب: "ما هذه الهينمة (الهمهمة) التي سمعت؟" قالا: "ما سمعت شيئاً"، قال: "بلى والله، لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه!"، ثم بطش بختنه سعيد بن زيد فصرعه على الأرض. فقامت أخته فاطمة لتدفعه عن زوجها، فضربها عمر ضربة على وجهها فدماها!

فلما دَمِيَ وجه أخته، ونظر إليها وهي ثابته في وجهه تسيل دماؤها، قالت له بعزة المؤمنة: *"نَعَمْ! قَدْ أَسْلَمْنَا وَآمَنَّا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَاصْنَعْ مَا بَدَا لَكَ!"*.

سكن غضب عمر، واستحى من أخته وسقوط الدم من وجهها، ونظر إلى الصحيفة وقال: "أعطوني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤونها لننظر ما جاء به محمد". فقالت أخته: "إنك نجس ولا يمسه إلا المطهرون، فقُم فاغتسل".

فقام عمر فاغتسل، ثم أخذ الصحيفة فقرأ فيها صدر سورة طه:

طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ * تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى [طه: 1-4].

فلما قرأ أسطراً منها، قال باهتزاز من العظمة القرآنية: *"ما أحسن هذا الكلام وأكرمه!"*.

خرج خباب من مخبئه وقال: "يا عمر! والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته البارحة يقول: اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب!".

انطلق عمر فوراً إلى دار الأرقم، واستأذن على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أصحابه وحمزة بطل الميدان. فلما رآه النبي صلى الله عليه

وسلم، أخذ بمجامع ثوبه وحمائل سيفه وجذبه جذبة شديدة وقال له: *"مَا جَاءَ بِكَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ؟ فَوَاللَّهِ مَا أَرَى أَنْ تَنْتَهِيَ حَتَّى يُنْزِلَ اللَّهُ بِكَ قَارِعَةً!"*.

فقال عمر بصوت يملؤه الخشوع: *"يَا رَسُولَ اللَّهِ، جِئْتُكَ لِأُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَبِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ!"*.

فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف أهل البيت أن عمر قد أسلم!

هتف طارق مبهوراً:

— سبحان مقلب القلوب! وكيف تغير وجه الدعوة في مكة بعد إسلام حمزة وعمر؟

أجاب الأب بنبرة واثقة:

— روى ابن مسعود رضي الله عنه قال: *"مَا زِلْنَا أَعِزَّةً مُنْذُ أَسْلَمَ عُمَرُ"*.

لقد خرج المسلمون لأول مرة من دار الأرقم في صفين متوازيين، أحدهما يتقدمه حمزة، والآخر يتقدمه عمر، حتى دخلوا المسجد الحرام وصليت الجماعة جهاراً أمام قريش، دون أن تجرؤ قريش على مساسهم، ولذا

سماه النبي صلى الله عليه وسلم "الفاروق" لأن الله فرق به بين الحق والباطل.

سأل طارق بتركيز:

— وبماذا ردت قريش حين رأت قوة المسلمين تنمو في مكة ورأت ثباتهم في الحبشة؟

— هنا انتقلت قريش إلى الخطة الأشمل والأبشع في التاريخ المكي: "المقاطعة والحصار الشامل".

في السنة السابعة للبعثة، اجتمعت بطون قريش وحلفاؤهم من كنانة في وادي "المحصب"، وكتبوا صحيفة ظالمة جائرة تعاهدوا فيها على:

1. ألا يناكحوا بني هاشم وبني المطلب (لا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم).
2. ألا يبايعوهم (لا يبيعون لهم شيئاً ولا يشترون منهم).
3. ألا يجالسوهم ولا يخالطوهم، ولا يقبلوا منهم صلحاً أبداً، حتى يسلموا إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقتلوه!

وعلقوا تلك الصحيفة الظالمة في جوف الكعبة لتوكيد حرمتها!

**حبس طارق أنفاسه وقال:**

**— حصار واقتصادي واجتماعي كامل؟ أين ذهب بنو هاشم وبنو المطلب تحت هذا الحصار؟**

**أجاب الأب بحزن ناطق:**

**— انحاز أبو طالب ومعه بنو هاشم وبنو المطلب جميعاً (مؤمنهم وكافرهم نصرة للعصبية والرحم، إلا أبا لهب فإنه ظاهر قريشاً) إلى "شِعْبِ أَبِي طَالِبٍ"، وهو وادٍ محصور بين جبال مكة.**

**وانحصروا هناك ثلاث سنوات كاملة (من السنة 7 إلى السنة 10 للبعثة). بلغ منهم الجهد والمجاعة مبلغة مروعة يا بني؛ اشتد الجوع حتى كانوا يأكلون أوراق الشجر والجلود اليابسة، وكان يُسمع أصوات بكاء الأطفال والصبيان من وراء الشعب من شدة الجوع. وكانت قريش تشتري كل قافلة دخلت مكة وتزايد في سعرها كي لا يشتري منها بنو هاشم شيئاً.**

**وكانت لا تصلهم الإمدادات إلا خفية؛ كأن يرسل حكيم بن حزام بعض القمح لعمته خديجة رضي الله عنها ليلاً.**

— وكيف انتهى هذا الحصار الجائر بعد ثلاث سنوات؟

— انتهى بصحوة المروءة في قلوب رجال من قريش (كهشام بن عمرو، وزهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي)، الذين تمشوا في ناديهم وقالوا: "أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى؟!".

وفي نفس الوقت، أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عمه أبا طالب بأن الله قد أرسل على الصحيفة "الأَرَكَةَ" (دودة الأرض)، فأكلت كل ما فيها من ظلم وقطيعة رحم، ولم تترك إلا اسم الله عز وجل.

فلما ذهب المشركون إلى الكعبة وشقوا الصحيفة، وجدوها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم قد أكلتها الأرضة إلا "باسمك اللهم"، فانحلت الصحيفة وخرج المسلمون وبنو هاشم من الشعب.

تنفس طارق الصعداء وقال:

— الحمد لله على انقضاء الحصار! أظن أن الفرج جاء بعد الحصار يا أبي؟

تغيرت نبرة الأب ونزل عليها الخشوع والأسى، وقال:

— آه يا بني.. لم يكد النبي صلى الله عليه وسلم يخرج من محنة الشعب في السنة العاشرة للبعثة، حتى نزلت به الفاجعة المزدوجة التي سميت في السيرة بـ "عَامِ الحُزْنِ".

مرض عمه العطوف أبو طالب مرضه الأخير، فدخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وهو يجود بنفسه، وقال له برغبة حارقة: *"أَيْ عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ!"*.

وكان عنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقالا: "أترغب عن ملة عبد المطلب؟!". ولم يزالا به حتى قال آخر ما قال: "هو على ملة عبد المطلب"، ومات على ذلك. فزن النبي صلى الله عليه وسلم عليه حزناً شديداً، وقال: *"لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ"*. فنزل القرآن ينهاه ويعزيه:

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ [التوبة: 113].

ونزل قوله تعالى:

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ [القصص: 56].

ولم تمضِ سوى شهرين أو ثلاثة على وفاة أبي طالب، حتى توفيت زوجته الحبيبة، وسنده النفسي، وأول من آمن به، السيدة خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ رضي الله عنها!

فقد النبي في عام واحد الحماية الخارجية (أبو طالب) والحماية الداخلية والسكن النفسي (خديجة).

هتف طارق وهو يكفكف دمعته:

— يا الله! فقد السندين في عام واحد! وكيف تصرف أمام اشتداد أذى قريش بعد وفاة عمه؟

أجاب الأب بحزن نبيل:

— لما تجرأت عليه قريش بعد وفاة أبي طالب، خرج النبي صلى الله عليه وسلم وحده ومعه مولاه زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رضي الله عنه مشياً على الأقدام إلى "الطَّائِفِ" (على بعد نحو 100 كيلومتر من مكة)، يبحث عن أرض جديدة تنصر دين الله عند قبيلة ثقيف.

ولكن قادة ثقيف (عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير) استقبلوه بأقبح رد وسخروا منه، ثم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم وصبيانهم، فوقفوا له في صفين ورجموه بالحجارة وهو يمشي بينهما!

كان زيد بن حارثة يتقي الحجارة بجسده حتى شُج رأسه، ورُجم النبي صلى الله عليه وسلم بالحجارة حتى اختضبت نعلاه الشريفتان بالدماء الزكية!

استند النبي صلى الله عليه وسلم إلى حائط (بستان) لابني ربيعة (عتبة وشيبة)، ولما آوى إلى ظل شجرة عنب، رفع رأسه إلى السماء ودعا بدعائه الخالد الذي يذوب له الحجر:

*"اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضُعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ! أَنْتَ رَبُّ المُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟ أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلَا أُبَالِي، وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي..."*.

فقيد الله له في البستان خادماً نصرانياً اسمه "عَدَّاسٌ"، قدم له قطفاً من عنب. فلما مد النبي يده وقال: *"بِسْمِ اللَّهِ"* ثم أكل، تعجب عداس وقال: "إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد!". فدار بينهما حوار علم فيه

عداس أنه نبي، فأكب عداس على يدَي رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجليه يقبلهما ويستغفر!

ولما قفل راجعاً نحو مكة، أرسل الله إليه جبريل عليه السلام ومعه مَلَكُ الجِبَالِ، فناداه ملك الجبال وقال: "يا محمد! إن الله قد سمع قول قومك لك، وقد بعثني إليك لتأمرني بما شئت، إن شئت أن أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ (جبلين عظيمين بمكة) فعلت!".

سأل طارق بكل جوارحه:

— وماذا قال نبي الرحمة والموقف في أوج ألمه ودماء قدميه لم تفتأ تنزف؟

ابتسم الأب وعيناه تدمعان وقال:

— أجاب بقمة الرحمة الإنسانية النبوية التي لا تنتهي:

*"بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا"*.

أغلق الأب الكتاب برفق، ونظر إلى طارق وقال:

**— ومن قلب هذه العتمة والحزن والدمار الشامل في مكة والطائف، فتح الله لأول مرة أبواب السماوات العلا في رحلة الإسراء والمعراج ليرى نبيه من آيات ربه الكبرى... وتلك هي الحكاية التي سنعيش أبعادها العلوية في الفصل القادم!**

# الفصل العاشر

كانت السماء في تلك الليلة صافية، والنجوم تتلألأ في كبد السماء وكأنها مصابيح معلقة. وقف "طارق" طويلاً يتأمل هذا الفضاء الواسع، قبل أن يلتفت إلى والده الذي كان يجلس على كرسيه متأملاً هو الآخر، وقال بصوت يحمل مزيجاً من الشجن والانبهار:

— أبي، بالأمس بكينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الطائف، ورأينا كيف أُغلقت في وجهه أبواب الأرض، وسالت دماؤه الطاهرة، وفقد نصيريه (أبا طالب وخديجة). كيف واساه الله عز وجل بعد كل هذا الألم؟ هل يُعقل أن يُترك أطهر قلب في الوجود وحيداً في مواجهة هذا الظلام الجاهلي؟

ابتسم الأب ابتسامة واسعة، أضاءت ملامحه، وقال بصوت يفيض باليقين:

— يا طارق، إن من سنن الله العظيمة أنه إذا أُغلقت أبواب الأرض، فُتحت أبواب السماء ! ولما بلغ الأسى بالنبي صلى الله عليه وسلم منتهاه، أراد الله عز وجل أن يمسح على قلبه بـ "تسلية ربانية" لم يحظَ بها بشر قط، لا قبله ولا بعده. لقد استضافه الله في أروقة السماوات العُلا ليريه من آياته الكبرى. إنها رحلة "الإِسْرَاءِ وَالمِعْرَاجِ"!

اعتدل طارق في وقفته، وجلس مقترباً من أبيه وقال بلهفة:

— الإسراء والمعراج! لطالما سمعت عنها بشكل عابر يا أبي. أريد اليوم أن أعيش تفاصيلها لحظة بلحظة، كما روتها الأحاديث الصحيحة. كيف بدأت هذه الرحلة؟ وأين كان النبي صلى الله عليه وسلم حينها؟

أجاب الأب بنبرة هادئة ومفصلة:

— وقعت هذه الرحلة قبل الهجرة إلى المدينة بنحو سنة (أو أكثر قليلاً على اختلاف الروايات). كان النبي صلى الله عليه وسلم نائماً في مكة، قريباً من الكعبة (في الحِجْر، أو قيل في بيت أم هانئ ثم نُقل إلى الحِجر).

روى الإمام البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك وأبي ذر رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: *"فُرِجَ عَن سَقْفِ بَيْتِي وأنا بمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ..."*.

— نزل جبريل؟ ماذا فعل قبل أن تبدأ الرحلة؟

— هنا وقعت "حَادِثَةُ شَقِّ الصَّدْرِ" للمرة الثانية يا بني (الأولى كانت وهو طفل في بني سعد). أخذ جبريل النبي صلى الله عليه وسلم إلى بئر زمزم، فشق صدره الشريف من نحره إلى أسفل بطنه، واستخرج قلبه، ثم غسله بماء زمزم.

ثم جِيءَ بِطَسْتٍ (وعاء) مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأُفْرِغَ فِي صَدْرِهِ، ثُمَّ أُطْبِقَ! لقد تم تهيئة قلبه وجسده مادياً وروحياً لتحمل اختراق طبقات الغلاف الجوي والصعود إلى ما وراء الكون المرئي.

— يا لروعة التمهيد! وكيف سافر من مكة إلى بيت المقدس (الإسراء)؟

— أُتي بدابة عجيبة تُسمى "البُرَاقَ". يصفها النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً: *"أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ، وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ، يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ"*.

تخيل السرعة الخارقة يا طارق! خطوته الواحدة تصل إلى أقصى نقطة يراها بصره. ركب النبي صلى الله عليه وسلم البراق ومعه جبريل عليه السلام، وانطلقا في رحلة "الإسراء" الأرضية من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس. وهناك، نزل النبي صلى الله عليه وسلم، وربط البراق بالحلقة التي يربط بها الأنبياء.

سأل طارق بتركيز:

— وماذا حدث داخل المسجد الأقصى؟

— حدث مشهد تاريخي وعقائدي مهيب. دخل النبي صلى الله عليه وسلم المسجد الأقصى، فجمع الله له أنبياءه ورسله، فصلى بهم ركعتين إماماً! وهذه الصلاة يا طارق هي إعلان رباني بأن القيادة الروحية للبشرية قد انتقلت رسمياً إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه خاتم الأنبياء وإمامهم، وأن رسالته هي المظلة التي تستوعب كل الرسالات السابقة.

وبعد الصلاة، جِيءَ له بإناءين: إناء فيه خمر، وإناء فيه لبن (حليب). فنظر إليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أخذ اللبن وشربه. فقال له جبريل عليه السلام:

***"الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَاكَ لِلْفِطْرَةِ، لَوْ أَخَذْتَ الْخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ".***

**هتف طارق منبهراً:**

**— اختيار اللبن هو اختيار الفطرة النقية السليمة! وماذا بعد الإسراء يا أبي؟ متى بدأ الصعود إلى السماء؟**

**أخذ الأب نفساً عميقاً، وبدأ يسرد أحداث "المعراج" وعيناه تشعان بالرهبة:**

**— هنا بدأت الرحلة العلوية (المعراج)، وهي الصعود في درجات السماوات السبع. عرج به جبريل حتى وصلا إلى السماء الدنيا (الأولى).**

**فاستفتح جبريل (طلب فتح الباب).**

**فقيل: مَنْ هَذَا؟**

**قَالَ: جِبْرِيلُ.**

**قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟**

**قَالَ: مُحَمَّدٌ.**

**قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟**

**قَالَ: نَعَمْ.**

**قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ!**

**فُتح الباب، فإذا النبي صلى الله عليه وسلم برجل جالس، عن يمينه أَسْوِدَةٌ (جموع من الأرواح)، وعن يساره أسودة. فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن يساره بكى!**

**فقال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم: *"هَذَا أَبُوكَ آدَمُ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ"*.**

**فسلم عليه، فرد آدم السلام وقال: *"مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ"*.**

**وسأل النبي جبريل عن الجموع التي حول آدم، فقال: *"هَذِهِ نَسَمُ بَنِيهِ (أرواحهم)، فَأَهْلُ اليَمِينِ أَهْلُ الجَنَّةِ، وَالأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ"*.**

**— سبحان الله! وماذا عن السماء الثانية؟ من التقى فيها؟**

**— صعد جبريل إلى السماء الثانية، واستفتح كما فعل في الأولى، فُرحب بهما. فلما دخل، وجد ابني الخالة: عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، وَيَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا**

عليهما السلام. فسلم عليهما، فردا وقالا: *"مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ"*.

ثم صعد إلى السماء الثالثة، فاستفتح ودخل، فإذا هو بنبي الله يُوسُفَ عليه السلام. قال النبي صلى الله عليه وسلم واصفاً إياه: *"وَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الحُسْنِ"* (أي نصف الجمال الذي خلقه الله). فسلم عليه، فرحب به كما رحب من سبقه.

ثم صعد إلى السماء الرابعة، فإذا هو بنبي الله إِدْرِيسَ عليه السلام، فسلم عليه ورحب به. وتلا النبي صلى الله عليه وسلم فيه قوله تعالى: وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا.

ثم صعد إلى السماء الخامسة، فإذا هو بنبي الله هَارُونَ عليه السلام، نصفه لحية بيضاء ونصفه لحية سوداء، فسلم عليه ورحب به.

ثم صعد إلى السماء السادسة، فإذا هو بنبي الله مُوسَى عليه السلام. فسلم عليه، فرد موسى مرحباً. ولكن يا طارق، حدث شيء عجيب عندما تجاوز النبي صلى الله عليه وسلم موسى!

انتبه طارق بقوة وسأل:

**— ماذا حدث يا أبي؟**

**— بكى موسى عليه السلام! فقيل له: مَا يُبْكِيكَ؟**

**فأجاب موسى بغيرة الأنبياء المحمودة على أجورهم وأممهم: *"أَبْكِي، لِأَنَّ غُلَامًا بُعِثَ بَعْدِي، يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي!"*. لم يبكِ حسداً، بل بكى أسفاً أن أمته لم تسبق أمة محمد في الخيرات والكثرة.**

**ثم صعد إلى السماء السابعة، وهناك كان المشهد العظيم. التقى بأبي الأنبياء إِبْرَاهِيمَ خليل الرحمن عليه السلام.**

**رآه النبي صلى الله عليه وسلم مُسنداً ظهره إلى "البَيْتِ المَعْمُورِ" (وهو كعبة أهل السماء). فسأل جبريل عنه، فقال جبريل: *"هَذَا البَيْتُ المَعْمُورُ، يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ!"* (أي من كثرة الملائكة، الفوج الذي يطوف به لا يعود إليه أبداً إلى يوم القيامة).**

**وقد أرسل إبراهيم عليه السلام رسالة عبر النبي إلينا يا طارق، هل تعرفها؟**

**رد طارق بلهفة:**

**— رسالة لنا نحن؟ لا، لا أعرفها!**

**— قال إبراهيم عليه السلام: *"يَا مُحَمَّدُ، أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ".***

**دمعت عينا طارق وهو يردد:**

**— وعليه السلام ورحمة الله وبركاته! يا لها من وصية غالية. أين ذهب النبي بعد السماء السابعة؟ هل بقي هناك؟**

**أخذ الأب نفساً عميقاً جداً، وكأنه يجمع الكلمات لوصف ما لا يوصف، وقال:**

**— هنا انتهت حدود السماوات المبنية، ورُفع النبي صلى الله عليه وسلم إلى "سِدْرَةِ المُنْتَهَى". وهي شجرة عظيمة جداً، ينتهي إليها ما يصعد من الأرض وما ينزل من فوقها.**

**يصفها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح قائلاً: *"فَإِذَا نَبْقُهَا (ثمرها) مِثْلُ قِلَالِ هَجَرَ (جرار كبيرة)، وَإِذَا وَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الفِيَلَةِ! فَلَمَّا***

***غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا!".***

**ورأى هناك أربعة أنهار: نهران باطنان في الجنة، ونهران ظاهران هما النيل والفرات (منبعهما الروحي من هناك).**

**وعند سدرة المنتهى يا طارق، رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام على صورته الملائكية الحقيقية التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح، يتناثر منها اللؤلؤ والياقوت!**

**ثم... وهنا تبلغ العظمة منتهاها... دنا النبي صلى الله عليه وسلم، وكُلِّم بغير واسطة!**

**توقف جبريل، وتقدم محمد صلى الله عليه وسلم لمناجاة ربه الكريم. لقد كلمه الله من وراء حجاب النور، كما فرض عليه وعلى أمته أعظم عبادة في الإسلام.**

**سأل طارق بصوت خاشع ومتهدج:**

**— ماذا فرض عليه الله في ذلك المقام الأعلى يا أبي؟**

**— فرض الله عليه وعلى أمته خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ!**

أخذ النبي صلى الله عليه وسلم الأمر، ورجع منصرفاً. فلما مرّ بموسى عليه السلام في السماء السادسة، دار بينهما حوار تاريخي يعكس شفقة الأنبياء على الأمم.

سأله موسى: بِمَ أُمِرْتَ؟

قال: أُمِرْتُ بِخَمْسِينَ صَلَاةً.

قال موسى المجرب الخبير: *"إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي وَاللَّهِ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ المُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ"*.

فرجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى ربه فطلب التخفيف، فوضع عنه عشراً (صارت أربعين). فنزل إلى موسى، فأمره بالرجوع مرة أخرى. ولم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يتردد بين ربه عز وجل وبين موسى عليه السلام، وفي كل مرة يضع الله عنه شطراً منها، حتى قال الله عز وجل:

*"يَا مُحَمَّدُ، إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً... مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ"*.

فنزل إلى موسى، فقال له: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف!

فقال النبي صلى الله عليه وسلم بحيائه العظيم: *"قَدِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي، وَلَكِنِّي أَرْضَى وَأُسَلِّمُ"*.

نظر الأب إلى طارق، ورفع سبابته قائلاً:

— هل تدرك يا بني قيمة الصلاة الآن؟ كل العبادات (الصيام، الزكاة، الحج) فُرضت في الأرض عبر الوحي لجبريل، إلا الصلاة! استدعى الله نبيه إلى سدرة المنتهى ليفرضها عليه مباشرة لأهميتها القصوى؛ فهي معراج المؤمن كل يوم إلى ربه.

تنهد طارق تنهيدة عميقة، وكأنه استيقظ من حلم جميل، وقال:

— يا لرحمة الله! نجاة وأجر خمسين، وعمل خمس فقط. ولكن يا أبي.. كيف عاد النبي إلى الأرض؟ وكيف واجه قريشاً بهذا الخبر الذي يفوق كل تصورات البشر؟ ألم يخشَ أن يكذبوه ويقولوا إنه مجنون؟

ابتسم الأب وقال:

— نزل النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس، وركب البراق وعاد إلى مكة قبل أن يصبح الصباح وفراشه لم يزل دافئاً!

فلما أصبح، كان مهموماً حزيناً؛ يعلم أن قريشاً ستكذبه. جلس معتزلاً، فمر به عدو الله أبو جهل، فجلس إليه وقال مستهزئاً: "هل كان من شيء؟"

فقال النبي صلى الله عليه وسلم بصدق وشجاعة لا تلين: *"نَعَمْ، أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَةَ"*.

قال أبو جهل باستنكار: "إلى أين؟"

قال: *"إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ"*.

قال أبو جهل وعيناه تتسعان مكراً: "ثم أصبحت بين ظهرانَينا؟!"

قال: *"نَعَمْ"*.

لم يكذبه أبو جهل فوراً، بل أراد أن يفضحه أمام الناس، فقال: "أرأيت إن دعوت قومك، أتحدثهم بما حدثتني؟"

قال النبي: *"نَعَمْ"*.

فصرخ أبو جهل ينادي بطون قريش، فاجتمعوا. فقص عليهم النبي صلى الله عليه وسلم خبر مسراه.

**— وماذا فعلت قريش؟ هل استهزأوا به؟**

**— بل جن جنونهم يا طارق! من بين مصفق بيديه، ومن واضع يده على رأسه تعجباً واستنكاراً. قالوا له: "نحن نضرب أكباد الإبل (نسافر) شهراً إلى الشام وشهراً للعودة، وأنت تذهب وتعود في ليلة واحدة؟! صف لنا بيت المقدس!". (وكانوا يعلمون أنه لم يسافر إليه قط).**

**هنا، وفي هذا الموقف العصيب، تدخلت العناية الإلهية. يقول النبي صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم: *"لَمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ، قُمْتُ فِي الحِجْرِ، فَجَلَّى اللَّهُ لِي بَيْتَ المَقْدِسِ، فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ (علاماته وأبوابه) وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ!"*.**

**تخيل! الله عز وجل رفع له المسجد الأقصى كأنه شاشة بث مباشر أمامه في مكة، فبدأ يصف لهم عدد أبوابه ونوافذه وزواياه بدقة متناهية. فقال من سافر منهم إلى الشام: "أما الوصف، فوالله لقد أصاب!".**

**ولكن عنادهم دفعهم لطلب دليل مادي. فقالوا: "أخبرنا عن عِيرنا (قوافلنا التجارية) التي في طريق العودة".**

فأخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بعدد جمالها، ومكانها بالضبط، بل وأخبرهم أن يَقْدُمَهَا (في أولها) جمل أورق (رمادي اللون) عليه غرارتان، وأنها ستصل عند شروق الشمس يوم كذا.

فلما جاء اليوم الموعود، خرجوا يترقبون، فإذا بالقافلة تقبل كما وصف تماماً! ومع ذلك، ماذا قال طغاة قريش؟ قالوا: *"هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ!"*.

هتف طارق بغضب:

— يا لعمى البصائر! وهل ارتد أحد من المسلمين لما سمعوا هذا الخبر العجيب؟ وأين كان أبو بكر في هذا الموقف؟

أشرق وجه الأب وهو يذكر أبا بكر وقال:

— نعم، ارتد بعض ضعاف الإيمان واستعظموا الخبر. وهنا ركض بعض المشركين إلى أبي بكر وهم يظنون أنهم وجدوا الضربة القاضية التي ستجعله يترك محمداً.

قالوا له بشماتة: "هل لك في صاحبك؟ يزعم أنه أُسري به الليلة إلى بيت المقدس وعاد!".

فماذا تتوقع أن يقول أبو بكر يا طارق؟ هل طلب دليلاً؟ هل استغرب؟

**قال طارق:**

**— لا بد أنه كان واثقاً.. ماذا قال؟**

**— قال كلمته التي حُفرت في جبين التاريخ، والتي سُمي بسببها بالصدِّيق. قال لهم بثبات الجبال:**

***"لَئِنْ كَانَ قَالَهُ لَقَدْ صَدَقَ!".***

**قالوا: أتصدقه أنه ذهب إلى الشام وعاد في ليلة؟**

**فأجابهم بمنطق الإيمان العظيم الذي ينسف كل شبهة:**

***"نَعَمْ! إِنِّي لَأُصَدِّقُهُ بِمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ، أُصَدِّقُهُ بِخَبَرِ السَّمَاءِ فِي غَدْوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ!".*** **(أي أصدقه أن الوحي ينزل عليه من فوق سبع سماوات في لحظة، فكيف لا أصدقه بمسيرة شهر على الأرض؟).**

**ومنذ تلك اللحظة، لُقب أبو بكر بـ "الصِّدِّيقِ" رضي الله عنه.**

**وقد خلد القرآن الكريم هذه المعجزة الكبرى في سورتين عظيمتين. فافتتحت سورة الإسراء بالرحلة الأرضية:**

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ [الإسراء: 1].

وفصلت سورة النجم أحداث المعراج السماوي وتجلياته:

وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ... مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ [النجم: 13-18].

صمت الأب، ونظر إلى ابنه الذي كانت عيناه مليئتين بدموع التأثر والإجلال، ثم قال بصوت دافئ:

— يا طارق، بعد هذه الرحلة العلوية، عاد النبي صلى الله عليه وسلم بقلب مفعم باليقين. أدرك أن رب السماوات السبع معه، فما يضره من كذّب في الأرض! ومن هنا، بدأ يغير استراتيجيته، ويبحث خارج أسوار مكة عن أرض خصبة تستقبل هذه الدعوة العظيمة.. أرض ستكون نقطة التحول الكبرى في التاريخ.

**— أي أرض تقصد يا أبي؟ هل هي يثرب؟**

**ابتسم الأب وأومأ برأسه قائلاً:**

**— نعم! ولكن الطريق إلى يثرب بدأ بلقاءات سرية في عتمة الليل في "عقبة منى" مع رجال لا يعرفهم ولا يعرفونه.. وهذا ما سنفتح دفاتره غداً في فصل "بيعة العقبة وبشائر الفجر الجديد"!**

# الفصل الحادي عشر

في زاوية المكتبة الدافئة، كان "طارق" يقلب صفحات دفتره، يتأمل كيف تحولت مكة إلى جدار أصم لا ينفذ إليه النور، وكيف أن الله فتح لنبيه أبواب السماء في رحلة الإسراء والمعراج. دخل والده يحمل بين يديه مجلداً ضخماً من مجلدات السيرة النبوية، وجلس قبالة طارق الذي سارع بالقول:

— أبي، لقد عاد النبي صلى الله عليه وسلم من السماوات العُلا بقلب يفيض باليقين، ولكن الواقع في مكة لم يتغير. أبو جهل يزداد عناداً، وقريش تُحكم قبضتها. كيف تصرف النبي صلى الله عليه وسلم؟ هل استمر في دعوة أهل مكة أم بحث عن مخرج آخر؟

أشرق وجه الأب بابتسامة الواثق، ووضع يده على المجلد قائلاً:

— يا بني، إن القائد المؤيد بالوحي لا يقف أمام الجدار المسدود يبكي حظه، بل يغير استراتيجيته. بعد رحلة الإسراء، أدرك النبي صلى الله

عليه وسلم أن تربة مكة قد سبخت (فسدت) ولم تعد صالحة لإنبات دولة الإسلام. فبدأ خطة جديدة تُعرف في السيرة بـ "عَرْضِ النَّفْسِ عَلَى القَبَائِلِ".

كان يستغل مواسم الحج، وأسواق العرب الكبرى (عكاظ، مجنة، ذو المجاز)، فيمشي بين خيام القبائل الوافدة، خيمة خيمة، وقبيلة قبيلة، يعرض عليهم الإسلام ويطلب منهم الحماية ليبلغ رسالة ربه.

— كيف كان يقول لهم يا أبي؟ وهل كانوا يستمعون إليه؟

أجاب الأب بنبرة يشوبها الحزن:

— كان يقف على منازلهم ويقول بكلمات تفيض بالرجاء والصدق:

*"يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُفْلِحُوا... مَنْ يُؤْوِينِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي وَلَهُ الجَنَّةُ؟".*

ولكن المفارقة المبكية يا طارق، أن عمه أبا لهب كان يمشي خلفه كظله! أينما وقف النبي يدعو قبيلة، وقف أبو لهب خلفه يرميه بالتراب والحجارة ويقول للناس: "لا تطيعوه فإنه صابئ كذاب، إنه يريد أن يسلخكم

من دين آبائكم!". فكانت القبائل ترد على النبي صلى الله عليه وسلم أقبح الرد. يقولون: "قومك أعلم بك، لو كان فيك خير لاتبعوك!".

— يا لثقل هذا الابتلاء! يتجول بين الخيام وعمه يُكذبه أمام العرب! هل من موقف محدد مع إحدى هذه القبائل يعكس طبيعة تفكيرهم السياسي آنذاك؟

— نعم يا بني، موقف قبيلة "بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ". ذهب إليهم النبي صلى الله عليه وسلم فعرض عليهم الإسلام وطلب النصرة. فقام رجل منهم يُدعى (بَيْحَرَةَ بْنَ فِرَاسٍ)، وكان داهية، فنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال في نفسه: "والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب!".

ثم التفت إلى النبي وقال له مساوماً: "أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟" (أي هل تعطينا الخلافة والملك بعد موتك؟).

هنا يا طارق، تتجلى عظمة النبوة التي لا تساوم على المبادئ من أجل مكاسب سياسية مؤقتة. لم يقل النبي صلى الله عليه وسلم "نعم" ليورطهم ثم يتراجع، بل أجابه بقاعدة إسلامية خالدة:

*"الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ، يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاءُ"*.

فلما سمع بيحرة هذا الرد الحاسم، قال بغرور: "أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك!". ورفضوا نصرته.

تنهد طارق وقال:

— كانوا يبحثون عن الملك، وهو يبحث عن القلوب! كم استمر النبي في هذا البحث المضني بين القبائل؟

— استمر لسنوات، حتى جاءت السنة الحادية عشرة للبعثة. وفي ليلة هادئة من ليالي الحج، وعند جمرة "العَقَبَةِ" في منى، رأى النبي صلى الله عليه وسلم ستة شباب يجلسون يتحدثون. فاقترب منهم وقال: *"مَنْ أَنْتُمْ؟"*

قالوا: "نفر من الخزرج" (من أهل يثرب).

قال: *"أَمَوَالِي يَهُودَ؟"* (أي حلفاء يهود المدينة؟).

قالوا: "نعم".

**قال: *"أَفَلَا تَجْلِسُونَ أُكَلِّمُكُمْ؟"* قالوا: "بلى".**

**جلس النبي صلى الله عليه وسلم إليهم، فعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن الكريم.**

**وهنا يا طارق، حدث أمر إلهي عجيب، هيأ الله به قلوب أهل يثرب (المدينة المنورة) للإسلام قبل أن يروه!**

**اعتدل طارق وسأل بفضول:**

**— أمر إلهي؟ ماذا تقصد؟ ما الذي جعل أهل يثرب يختلفون عن بقية قبائل العرب؟**

**أجاب الأب وعيناه تلمعان إعجاباً بالتخطيط الرباني:**

**— يثرب كانت مدينة مختلطة، يسكنها العرب (الأوس والخزرج) ويسكنها اليهود (بنو قريظة، والنضير، وقينقاع). وكان العرب أهل شرك، واليهود أهل كتاب وعلم. فكان إذا وقع قتال بين العرب واليهود، واليهود يستفتحون (يستنصرون) على العرب ويقولون لهم متوعدين:**

**"إن نبياً قد أظل زمانه، نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم!".**

فلما جلس النبي صلى الله عليه وسلم إلى هؤلاء الستة من الخزرج (ومنهم أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث)، وسمعوا كلامه والقرآن، نظر بعضهم إلى بعض وقالوا كلمتهم التاريخية:

*"يَا قَوْمِ، تَعْلَمُوا وَاللَّهِ إِنَّهُ لَلنَّبِيُّ الَّذِي تُوعِدُكُمْ بِهِ يَهُودُ، فَلَا يَسْبِقُنَّكُمْ إِلَيْهِ!"* .

فأسرعوا ولبوا دعوته، وأسلموا جميعاً في تلك الليلة المظلمة في منى. ثم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم يعتذرون عن ضعفهم الحالي: "إنا قد تركنا قومنا (الأوس والخزرج) ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم (يقصدون حرب بُعاث الطاحنة)، فعسى الله أن يجمعهم بك، فسنَقْدَمُ عليهم، فندعوهم إلى أمرك، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك!".

— يا سبحان الله! اليهود كانوا يبشرون به، فكان ذلك سبباً في إسلام العرب! ماذا حدث بعد أن عاد هؤلاء الستة إلى يثرب؟

— عادوا يا بني، فما تركوا داراً من دور الأوس والخزرج إلا وذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى لم تبق دار في يثرب إلا وفيها ذكر لمحمد!

وفي العام التالي (السنة الثانية عشرة للبعثة)، قدم مكة في موسم الحج اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا من يثرب (عشرة من الخزرج، واثنان من الأوس). وهذا كان أول اختراق لجدار العداوة بين الأوس والخزرج!

التقوا بالنبي صلى الله عليه وسلم في نفس المكان (العقبة)، وبايعوه بيعة سُميت تاريخياً بـ "بَيْعَةِ العَقَبَةِ الأُولَى"، وتسمى أيضاً بـ "بيعة النساء" لأنه لم يكن فيها أمر بالقتال أو الجهاد بعد.

— على ماذا بايعوه يا أبي؟ ما كانت بنود هذه البيعة؟

— روى البخاري ومسلم عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه (وكان من الوفد) قال: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة الأولى على أن:

*"لَا نُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا نَسْرِقَ، وَلَا نَزْنِيَ، وَلَا نَقْتُلَ أَوْلَادَنَا، وَلَا نَأْتِيَ بِبُهْتَانٍ نَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِينَا وَأَرْجُلِنَا، وَلَا نَعْصِيَهُ فِي مَعْرُوفٍ... فَمَنْ وَفَّى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللَّهُ، فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ؛ إِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ"*. (وهي نفس شروط بيعة النساء التي نزلت لاحقاً في سورة الممتحنة).

— جميل جداً.. بيعة أخلاقية وعقائدية بحتة. ولكن كيف سيتعلم هؤلاء الاثني عشر تفاصيل الإسلام والقرآن وهم في يثرب والنبي في مكة؟

ابتسم الأب وقال:

— هنا أرسل النبي صلى الله عليه وسلم أول "سفير" في تاريخ الإسلام. شاب وسيم، مُنعم، كان أثرى شباب مكة وأكثرهم دلالاً قبل إسلامه، ولكنه ترك الدنيا كلها لله.. إنه مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ رضي الله عنه.

أرسله النبي صلى الله عليه وسلم معهم ليقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام. فنزل مصعب في ضيافة "أسعد بن زرارة".

وفي يثرب، سطر مصعب أروع قصص الحوار والهدوء في الدعوة، ومن أعظمها قصة إسلام سيدي الأوس: أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ، وَسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ.

انتبه طارق، وأمسك قلمه متلهفاً:

— سعد بن معاذ؟ الذي اهتز له عرش الرحمن؟ كيف أسلم؟

أجاب الأب بحماس:

**— كان مصعب يجلس مع أسعد بن زرارة في حديقة، يعلم الناس القرآن. فغضب سعد بن معاذ (وكان سيد قومه)، وأرسل ابن عمه أُسيد بن حضير ليطرد مصعباً.**

**أقبل أسيد شاهراً حربته، غاضباً، ووقف على مصعب وأسعد وقال: "ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة!".**

**فلم يغضب مصعب، ولم يرفع صوته، بل استخدم سلاح اللين والدهاء الدعوي، فنظر إلى أسيد بابتسامة هادئة وقال:**

***"أَوَتَجْلِسُ فَتَسْمَعَ؟ فَإِنْ رَضِيتَ أَمْرًا قَبِلْتَهُ، وَإِنْ كَرِهْتَهُ كَفَفْنَا عَنْكَ مَا تَكْرَهُ؟".***

**قال أسيد: "أنصفت!". وركز حربته وجلس.**

**فقرأ عليه مصعب القرآن، وشرح له الإسلام. يقول الصحابة: *"فَوَاللَّهِ لَعَرَفْنَا فِي وَجْهِهِ الإِسْلَامَ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ، فِي إِشْرَاقِهِ وَتَسَهُّلِهِ!".***

**قال أسيد: "ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟".**

فأسلم أسيد، واغتسل، وصلى ركعتين. ثم قال: "إن ورائي رجلاً (يقصد سعد بن معاذ) إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن".

أرسل أسيد سعداً، فجاء سعد غاضباً أيضاً، ففعل معه مصعب تماماً كما فعل مع أسيد: *"أَوَتَجْلِسُ فَتَسْمَعَ..."*.

فجلس سعد، فسمع القرآن، فأشرق وجهه بالإسلام قبل أن يتكلم، وأسلم في لحظتها!

— الله أكبر! العقلية الصافية لا تقاوم القرآن إذا سمعته بهدوء! وماذا فعل سعد بن معاذ بعد إسلامه؟

— قام سعد وذهب إلى قومه (بني عبد الأشهل)، ووقف فيهم وقال: "يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟" قالوا: "سيدنا، وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيبة".

فقال سعد كلمته الحاسمة: *"فَإِنَّ كَلَامَ رِجَالِكُمْ وَنِسَائِكُمْ عَلَيَّ حَرَامٌ، حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ!"*.

فوالله يا طارق، ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة! قبيلة كاملة أسلمت في يوم واحد بسبب رجل واحد!

هتف طارق فرحاً:

— يا لبركة هذا السفير مصعب بن عمير! لقد مهد المدينة تماماً لاستقبال النبي صلى الله عليه وسلم. متى كانت اللحظة الحاسمة إذن لانتقال النبي إليهم؟

تغيرت نبرة الأب لتصبح أكثر جدية، ومال بجسده نحو طارق وقال:

— اللحظة الحاسمة كانت في العام التالي (السنة الثالثة عشرة للبعثة). عاد مصعب إلى مكة يبشر النبي صلى الله عليه وسلم بانتشار الإسلام. وفي موسم الحج، خرج من يثرب ركب كبير من المشركين، واندس بينهم ثَلَاثَةٌ وَسَبْعُونَ رَجُلًا، وَامْرَأَتَانِ (نسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو) من المسلمين الخُلّص.

اتفقوا مع النبي صلى الله عليه وسلم على لقاء سري للغاية، متى؟ في أوسط أيام التشريق، في جوف الليل، عند جمرة العقبة.

تخيل المشهد يا طارق: منتصف الليل، والآلاف من الحجاج المشركين نيام في منى، وهؤلاء الثلاثة والسبعون يتسللون من خيامهم بخفة وحذر، يقول كعب بن مالك رضي الله عنه: *"تَتَسَلَّلُ تَسَلُّلَ القَطَا (نوع من الطيور) حَتَّى اجْتَمَعْنَا فِي الشِّعْبِ عِنْدَ العَقَبَةِ"*.

سأل طارق يحبس أنفاسه من شدة التوتر:

— اجتماع في منتصف الليل لثلاثة وسبعين رجلاً! من حضر مع النبي صلى الله عليه وسلم هذا الاجتماع الخطير؟

— هنا المفاجأة التاريخية يا بني! حضر مع النبي صلى الله عليه وسلم عمه العَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وكان يومئذٍ على دين قومه (مشركاً)، ولكنه حضر ليتوثق لابن أخيه ويطمئن على مصيره.

وكان العباس أول من تكلم في هذا الاجتماع السري، فقال مخاطباً الأنصار ليختبر جديتهم:

"يا معشر الخزرج، إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، وهو في عز من قومه ومنعة في بلده. وإنه قد أبى إلا الانقطاع إليكم واللحوق بكم. فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ، وَمَانِعُوهُ

**مِمَّنْ خَالَفَهُ، فَأَنْتُمْ وَمَا تَحَمَّلْتُمْ مِنْ ذَلِكَ. وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ مُسْلِمُوهُ وَخَاذِلُوهُ بَعْدَ الخُرُوجِ بِهِ إِلَيْكُمْ، فَمِنَ الآنَ فَدَعُوهُ!".**

**فقال البراء بن معرور (من قادة الأنصار): "قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، وخُذ لنفسك ولربك ما أحببت".**

**فتكلم النبي صلى الله عليه وسلم، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال بنوده الصارمة لهذه البيعة التي سميت "بَيْعَةَ العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ (أو بيعة الحرب)":**

***"أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي (تحمونـي) مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ".***

**فأخذ البراء بن معرور بيده وقال: "نعم، والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرَنَا (نساءنا)، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحَلْقَةِ (السلاح)".**

**وهنا يا طارق، برز سؤال سياسي وعاطفي عميق من أحد الأنصار، وهو أبو الهيثم بن التيهان، قاطع كلام البراء وقال:**

"يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال (يعني اليهود) حبالاً، وإنا قاطعوها، فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ، ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللَّهُ، أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ وَتَدَعَنَا؟". (يعني هل ستتركنا وتعود لمكة بعد أن نضحي من أجلك؟).

دمعت عينا طارق لهذا السؤال المفعم بالحب والقلق، وسأل:

— ماذا كان رد النبي صلى الله عليه وسلم على هذا الحب الصادق؟

ابتسم الأب وقال:

— تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتسامة ملؤها الوفاء العظيم، وقال كلمات خلدها التاريخ ميثاقاً للأنصار إلى يوم الدين:

*"بَلِ الدَّمَ الدَّمَ، وَالهَدْمَ الهَدْمَ! أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ، وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ".*

فلما سمعوا هذا العهد النبوي، تدافعوا يبايعونه واحداً تلو الآخر. وقبل أن يبايعوا، قال لهم أسعد بن زرارة محذراً: "رويداً يا أهل يثرب! إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وإن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف! فإما أنتم قوم

تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خِيفة فذروه فبينوا ذلك، فهو أعذر لكم عند الله!".

فصاحوا جميعاً: "أمِط عنا يدك يا أسعد! فوالله لا نذر هذه البيعة أبداً ولا نستقيلها!".

وبعد أن بايعوه، طلب منهم النبي صلى الله عليه وسلم تنظيماً إدارياً وقيادياً دقيقاً، فقال:

*"أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا (قائداً)، لِيَكُونُوا عَلَى قَوْمِهِمْ بِمَا فِيهِمْ".*

فاختاروا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

— سبحان الله! تخطيط عسكري وإداري متكامل في جوف الليل! وهل انتهى الاجتماع بسلام ولم يشعر بهم أحد من قريش؟

تغير وجه الأب وقال بجدية:

— بل كاد السر أن ينفضح في اللحظة الأخيرة! فجأة، ومن على رأس جبل العقبة، صرخ شيطان يُدعى "أَزَبُّ العَقَبَةِ" بأعلى صوته، بصوت لم يسمعوا أشد منه قط، ينادي حجاج قريش:

"يَا أَهْلَ الجَبَاجِبِ (المنازل)! هَلْ لَكُمْ فِي مُذَمَّمٍ (يقصد محمداً) وَالصُّبَاةِ مَعَهُ، قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى حَرْبِكُمْ؟!".

فزع الأنصار من هذا الصوت الذي خرق سكون الليل وكشف السر. وهنا انبرى عَبَّاسُ بْنُ عُبَادَةَ (أحد الأنصار) بشجاعة منقطعة النظير وقال: "يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، إن شئت لَنَمِيلَنَّ عَلَى أَهْلِ مِنًى غَدًا بِأَسْيَافِنَا!" (أي دعنا نبدأ الحرب عليهم الآن وهم نيام!).

فماذا تتوقع أن يكون رد نبي الرحمة والقائد المنضبط بوحي السماء؟ هل استغل الحماس لشن هجوم مباغت؟

أجاب طارق فوراً:

— لا أعتقد، لأن الجهاد لم يُشرع بعد! ماذا قال؟

— قال النبي صلى الله عليه وسلم بكل هدوء وثبات:

*"لَمْ نُؤْمَرْ بِذَلِكَ، وَلَكِنِ ارْجِعُوا إِلَى رِحَالِكُمْ".*

فرجعوا إلى فرشهم كأن شيئاً لم يكن. ولما أصبح الصباح، جاءت قيادات قريش إلى خيام الخزرج والأوس غاضبين يسألون عن هذا الحلف، فحلف المشركون من الخزرج والأوس (وهم لا يعلمون شيئاً عما جرى

في الليل) أنه لم يحدث شيء، ونظر المسلمون بعضهم إلى بعض صامتين، فانصرفت قريش مصدقة لمشركي يثرب.

أغلق الأب الكتاب ووضعه على الطاولة، وقال وهو ينظر في عيني طارق بعمق:

— يا طارق، ببيعة العقبة الثانية، أُضيئت الإشارة الخضراء لأعظم حدث سيغير خريطة العالم. لقد أصبحت يثرب "دار إسلام ومنعة". وأذن النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه المستضعفين في مكة بالهجرة إليها، فبدؤوا يتسللون فرادى وجماعات.

وبقي هو، وأبو بكر، وعلي، ينتظرون الإذن الإلهي الأكبر.. الإذن بخروج النبي صلى الله عليه وسلم نفسه.

وهذا ما قاد قريشاً لاتخاذ أشنع وأخطر قرار في تاريخ دار الندوة! وهذا ما سنعيش تفاصيله المذهلة غداً في فصل "مؤامرة دار الندوة وليلة الغار الأسطورية"!

# الفصل الثاني عشر

حلّ الليل على مكة ساجياً، بينما كان "طارق" يجلس قبالة والده في زاوية المكتبة، وبيده القلم الذي كاد ألا يفارقه. كان يصغي بكل جوارحه، وقد بدت على وجهه علامات التأثر الشديد؛ فالمرحلة التي وصلا إليها هي النقطة الفاصلة التي سينتقل فيها العالم كله من عصر إلى عصر.

رفع طارق نظره إلى أبيه وقال بنبرة تفيض بالترقب:

— أبي، في الليلة الماضية رأينا كيف تحولت يثرب إلى حصن آمن بعد بيعتي العقبة الأولى والثانية، وكيف بدأ المسلمون المستضعفون يتسللون فرادى وجماعات فراراً بدينهم، حتى أصبحت مكة تكاد تخلو من المسلمين إلا من الرسول صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر، وعلي بن أبي طالب، ونفر يسير من العجزة والمحبوسين.

ماذا كان موقف قريش وهم يرون أنصار محمد في يثرب يزدادون قوة، وأن أصحابه يتجمعون هناك؟ ألم يدركوا خطر هذا التحول العسكري والسياسي؟

تنفس الأب الصعداء، وأغلق كتاب السيرة المفتوح بين يديه جزئياً ليضع إبهامه بين صفحاته، ثم قال بصوت عميق ودافئ:

— بلى يا طارق! لقد كانت قريش تراقب هذا التسرب التدريجي بوجل شديد وقلق قاتل. أدرك صناديد مكة أن محمداً صلى الله عليه وسلم إذا لحق بأصحابه في يثرب، فإنه سيقيم acolo قوة ضاربة على طريق تجارتهم الشامية، وسيهدد شريان حياتهم الاقتصادية نهائياً.

وهنا يا بني، تحرك عقل الجاهلية المدبر لخطة الإبادة الأخيرة!

سأل طارق بتركيز شديد:

— كيف تحركوا؟ وماذا دار في كواليسهم؟

أجاب الأب بنبرة تجسد هيبة التاريخ وخطورته:

— في صبيحة يوم الخميس، وهو الخامس والعشرون من شهر صفر في السنة الرابعة عشرة للبعثة (وهي السنة الأولى للهجرة)، عقد سادات قريش اجتماعاً أمنياً وعسكرياً استثنائياً في "دَارِ النَّدْوَةِ" (وهي دار قصي بن كلاب التي كانت تُتخذ مقراً لقوارير قراراتهم الخطيرة).

حضر البرلمان الجاهلي كبار الطغاة: أَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ، وأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ، وعُتْبَةُ وَشَيْبَةُ ابْنَا رَبِيعَةَ، وأَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، وغيرهم من أشراف قريش.

وروت أمهات كتب السيرة (كابن إسحاق) أنه اعترضهم عند باب الدار شيخ جليل المظهر يرتدي ثياباً فاخرة، فقالوا له: "من الشيخ؟" قال: "شيخ من أهل نجد، سمع بالذي اجتمعتم له، فحضر ليسمع ما تقولون، ولعلكم لا تعدمون منه رأياً ونصيحة!". فأذنوا له ودخل معهم، وكان ذلك هو إبليس المتمثل في صورة رجل نجدي!

بدأت المداولات والمقترحات حول كيفية التخلص من النبي صلى الله عليه وسلم:

- قام أَبُو البَخْتَرِيِّ بْنُ هِشَامٍ واقترح: "احبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه باباً، وتربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك الشعراء قبله!". فقال الشيخ النجدي: "لا والله ما هذا لكم برأي! والله لئن حبستموه لَيَخْرُجَنَّ أمره من وراء الباب إلى أصحابه، ولَيُوشِكُنَّ أن يثوروا عليكم فينزعوه من أيديكم ثم يكاثرونكم به!".
- فقام أَبُو الأَسْوَدِ رَبِيعَةُ بْنُ عَمْرٍو واقترح: "نخرجه من بين أظهرنا وننفيه من بلادنا، فلا نبالي أين ذهب ولا حيث وقع، إذا استرحنا

منه ومن عدواه!". فقال الشيخ النجدي: "لا والله ما هذا لكم برأي! ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة لسانه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به؟ والله لو فعلتم لَيَحَلَّنَّ على حي من العرب، ثم ليقودنهم إليكم حتى يطأكم بهم في بلادكم!".

هتف طارق مأخوذاً بالتحليل الداخلي للمؤامرة:

— حاصروه بكل الاحتمالات! فماذا كان الحل الشيطاني النهائي الذي اتفقوا عليه؟

تغيرت نبرة الأب وأصبحت أكثر جدية وقسوة:

— انبرى أَبُو جَهْلٍ لعنه الله بعبقريته الإجرامية وقال: "والله إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد!".

قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟

قال: "أرى أن نأخذ من كل قبيلة من قريش فتىً شاباً جلداً نسيباً حسيباً، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه، ونستريح منه! فيتفرق دمه في القبائل كلها، فلا يقدر بنو

هاشم وبنو المطلب على حرب قريش كلها، فيرضون منا بالدية فنؤديها إليهم!".

وهنا صفق الشيخ النجدي وقال: "القول ما قال الرجل! هذا الرأي لا أرى غيره!".

فأجمع قوم قريش على هذا القرار الآثم، وتفرقوا على أن ينفذوه في منتصف الليل عند فراش النبي صلى الله عليه وسلم!

سأل طارق، وعيناه تلمعان بقلق شديد:

— ولكن يا أبي، كيف يبيت المكر في الأرض ورب السماء يسمع ويرى؟ كيف أحبط الله هذه المؤامرة الدنيئة؟

ابتسم الأب ابتسامة ثقة ويقين، واستشهد بالقرآن الكريم:

— نعم يا بني! لقد أنزل الله جبريل عليه السلام فوراً على النبي صلى الله عليه وسلم ليطلعه على المؤامرة، وأنزل قوله تعالى المخلّد في سورة الأنفال:

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ [الأنفال: 30].

**وأمره جبريل ألا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه تلك الليلة.**

**وهنا بدأت مرحلة التخطيط النبوي المحكم للهجرة؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم أخذ بالأسباب البشرية كاملة وكأنه لا يعتمد على المعجزة، مع يقينه التام بحفظ الله له.**

**خرج النبي صلى الله عليه وسلم في ظهيرة ذلك اليوم في حر الشديد (وهي ساعة لا يخرج فيها أحد عادة) إلى بيت أقرب الناس إليه: أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه.**

**قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها (كما روى البخاري في صحيحه):**

***"بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَاهِرَةِ الظَّهِيرَةِ، قَالَ قَائِلٌ لِأَبِي بَكْرٍ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَقَنِّعًا (مغطياً رأسه)، فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا! فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فِدَاءٌ لَهُ أَبِي وَأُمِّي، وَاللَّهِ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ!".***

**دخل النبي صلى الله عليه وسلم، وقال لأبي بكر: *"أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ"*.**

فقال أبو بكر: "إنما هم أهلك يا رسول الله، بأبي أنت وأمي!" (وكانت عائشة وأختها أسماء هناك).

فقال النبي صلى الله عليه وسلم بصوت خافت يحمل بشارة الفجر: *"فَإِنَّهُ قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ"*.

فهتف أبو بكر بالشوق الذي ملأ شغاف قلبه لسنوات:

"الصَّحَابَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟! (أي هل أصحبك؟)".

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: *"الصَّحَابَةَ"*.

تقول عائشة رضي الله عنها في رواية البخاري: *"فَوَاللَّهِ مَا شَعَرْتُ قَطُّ أَنَّ أَحَدًا يَبْكِي مِنَ الفَرَحِ حَتَّى رَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ يَبْكِي يَوْمَئِذٍ!"*.

قاطع طارق أباه بدموع مترقرقة:

— يبكي من الفرح لأنه سيعرض حياته للموت والمطاردة مع رسول الله! يا لصدق هذه الصحبة!

— نعم يا بني! وكان أبو بكر قد أعد راحلتين (ناقتين) وعلفهما بآراد الشجر أربعة أشهر استعداداً لهذه اللحظة. فقال للنبي: "خذ إحدى راحلتيّ هاتين يا رسول الله".

فقال النبي صلى الله عليه وسلم بعزة وفضل: *"بِالثَّمَنِ يا أبا بكر"*. (لأنه أراد أن تكون هجرته لله بكامل ماله وجسده).

ثم اتفقا على خطة السير السرية:

1. يخرجان من باب خلفي لبيت أبي بكر ليلاً.
2. لا يتجهان شمالاً فوراً نحو يثرب (الطريق المألوف)، بل يتجهان جنوباً بعكس اتجاه يثرب تماماً نحو جبل ثَوْرٍ.
3. يختبئان في "غَارِ ثَوْرٍ" ثلاثة أيام حتى يهدأ طلب قريش وسعر بحثهم.
4. استئجار دليل خبير بالطرق الصحراوية النادرة، وهو عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُرَيْقِطٍ (وكان مشركاً ولكنه أمين وموثوق في صنعة الطريق).
5. تكليف عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ (وكان غلاماً ثقفاً لقناً) ليتجسس على أخبار مكة نهاراً ويأتيهما بالخبر ليلاً.
6. تكليف عَامِرِ بْنِ فُهَيْرَةَ (مولى أبي بكر) ليرعى الغنم خلف عبد الله بن أبي بكر ليعفي على آثاره، ويسقيهما من لبن الشاة.

**7. تكليف أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ بتحضير الطعام والشراب ونقله إلى الغار.**

**سأل طارق بإعجاب شديد:**

**— منظومة أمنية ولوجستية بشرية متكاملة! وماذا عن الفتيان الذين أحيطوا ببيت النبي صلى الله عليه وسلم بالسلاسل والسيوف في مكة؟**

**أجاب الأب بنبرة تملؤها الرهبة والإجلال:**

**— عاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيته في المساء. واجتمع الفتيان المدججون بالسلاح حول بيته، يرصدونه من خلال ثقوب الباب، ينتظرون لحظة نومه ليقتلوه في الفجر.**

**وهنا طلب النبي صلى الله عليه وسلم من ابن عمه الشاب الفدائي البطل عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه أمراً يزن الجبال.**

**قال له: *"نَمْ عَلَى فِرَاشِي، وَتَدَثَّرْ بِبُرْدِي هَذَا الحَضْرَمِيِّ الأَخْضَرِ، فَإِنَّهُ لَنْ يَخْلُصَ إِلَيْكَ شَيْءٌ تَكْرَهُهُ مِنْهُمْ"*.**

فنام عليٌّ في فراش النبي وهو يعلم أن السيوف مشهرة خلف الباب! فكان أول فدائي في الإسلام يخاطر بحياته ليرد الأمانات التي كانت المشركون يضعونها عند "الصادق الأمين"!

وفي منتصف الليل، خرج النبي صلى الله عليه وسلم من باب بيته بثبات ويقين، وحفنة من تراب في يده الشريفة، فحثا التراب على رؤوس أولئك الفتيان وهم واقفون لا يشعرون، وهو يتلو أوائل سورة يس:

وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ [يس: 9].

فأعمى الله أبصارهم، وتسلل من بينهم ومضى إلى بيت أبي بكر، ومنه انطلقا نحو جبل ثور!

وفجأة في الصباح، أقبل رجل لم يكن معهم وقال للفتيان الواقفين: "ما تنتظرون هاهنا؟"

قالوا: "محمداً!".

قال: "خيبكم الله! والله لقد خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً، وانطلق لحاجته!".

قالوا: "والله ما أبصرناه!". ثم اقتحموا الدار، فقام عليٌّ من الفراش!

فنُهطوا في وجهه وقالوا بغيظ: "أين صاحبك؟!"

قال علي بنبرة الشجاع: "لا أدري! أكنتم عليه رقيباً؟! أم قلتم له أقم فأقام؟!".

هتف طارق مبهوراً:

— صفعة مدوية لقريش! وماذا فعلوا حين علموا بإفلاته؟

— جن جنونهم يا طارق! وضُرب استنفار أمني لم تشهده مكة قط. ورصدوا جائزة مالية ضخمة لمن يأتيهم بمحمد وأبي بكر حيين أو ميتين: مِائَةَ نَاقَةٍ عن كل واحد منهما!

وانتشر الفرسان والمقتفون للآثار في كل اتجاه.

وفي هذه الأثناء، كان النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قد وصلا إلى غار ثور، وهو غار ضيق صلب في أعلى الجبل.

دخل أبو بكر أولاً لينظف الغار ويسد جحوره كي لا يؤذى النبي صلى الله عليه وسلم، فسد الجحور بثوبه، وبقي جحر واحد فوضع عقبه عليه.

ثم دخل النبي صلى الله عليه وسلم ونام ورأسه في حجر أبي بكر. ولدغت أبا بكر حية في رجله من ذلك الجحر، فلم يتحرك مخافة أن يوقظ رسول الله، حتى سقطت دموعه على وجه النبي صلى الله عليه وسلم، فاستيقظ وقال: *"مَا لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ؟"* قال: لُدغت بأبي أنت وأمي! فتفل النبي صلى الله عليه وسلم على الموضع فبرئ بإذن الله!

سأل طارق بقلق بالغ:

— وهل وصل المشركون وقصّاص الأثر إلى هذا الغار يا أبي؟

— نعم يا بني! وصل المطاردون والمقتفون للآثار حتى وقفوا على باب الغار تماماً! لم يكن بينهم وبين النبي وأبي بكر إلا خطوة واحدة، ولو نظر أحدهم تحت قدميه لرآهما!

روى الإمام البخاري ومسلم عن أنس بن مالك عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال:

***"قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا فِي الغَارِ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ!".***

**تخيل يا طارق الرعب البشري واللحظة التي تتوقف فيها الأنفاس!**

**فماذا كان جواب النبي صلى الله عليه وسلم الثابت الذي ينبع من سدرة المنتهى؟**

**التفت إلى أبي بكر، وقال بابتسامة الطمأنينة والإيمان المطلق:**

***"يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا؟!".***

**ثم أنزل الله السكينة والحماية الإلهية، ونزلت الآية الخالدة في سورة التوبة تنطق بها الأجيال:**

**إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [التوبة: 40].**

وعميت أبصار المشركين، وانصرفوا من أمام الغار يفتشون في اتجاهات أخرى!

— سبحان الله! "لا تحزن إن الله معنا"! وماذا حدث بعد انقضاء الأيام الثلاثة في الغار؟

أكمل الأب وعيناه تلمعان بحماس السرد:

— في الليلة الرابعة، جاء الدليل الأمين عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُرَيْقِطٍ بالراحلتين. ونزلت أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ بالطعام، ولما لم تجد عصاباً تربط به السفرة (وعاء الطعام)، شقت نطاقها (حزامها) نصفين؛ فربطت بسفرة الطعام نصفاً، وبثمه بالسقاء نصفاً، فسميت من ذلك اليوم بـ "ذَاتِ النِّطَاقَيْنِ".

وانطلق النبي صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وعامر بن فهيرة، والدليل ابن أريقط، وسلكوا طريق السواحل القفر المجهول نحو يثرب.

وفي الطريق، وقعت حادثة أسطورية أخرى مع الفارس الجسور سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكٍ!

هتف طارق:

— سراقة بن مالك؟ الذي كان يبحث عن جائزة المائة ناقة؟

— نعم! كان سراقة يطمع في جائزة المائة ناقة. فلما بَصُرَ بالركب النبوي، ركب فرسه السريع واقترب منهم حتى لم يبق بينه وبينهم إلا قيد رمح، وكان يسمع قراءة النبي صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر التلفت خوفاً على النبي.

وفجأة! دعت الأقدار الإلهية؛ فساخت (ساخت أي غرست) يدا فرس سراقة في الأرض الصلبة إلى الركبتين، وخرّ عنها!

فزجر فرسه فنهضت، وسقط من يديها غبار ساطع كالدخان في السماء.

فأدرك سراقة أن هذا ليس أمراً بشرياً، بل حماية إلهية حاسمة. فنادى بالأمان: "يا محمد، قد علمت أن هذا عملك، فادعُ الله أن يطلق فرسي ولك عليّ أن أرد عنك الطلب!".

فدعا له النبي صلى الله عليه وسلم، فأُطلقت فرسه.

ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم لسراقة بنبؤة عجيبة ومفاجئة يفوق تصدقها العقل في ذلك الوقت:

*"كَيْفَ بِكَ يَا سُرَاقَةُ إِذَا لَبِسْتَ سِوَارَيْ كِسْرَى؟!"*.

سأل سراقة بذهول: "كسرى بن هرمز ملك فارس؟!" قال النبي: *"نَعَمْ!"*.

ورجع سراقة يرد الناس عن هذا الطريق ويقول: "قد كفيتكم هاهنا، ليس هاهنا أحد!". (فسبحان من جعل المطارد الحريص حارساً مدافعاً في ساعات!).

تنهد الأب بفرجة وعمق، ثم قال:

— واصل الركب النبوي الشريف طريقه بين الشعاب والرمال، حتى اقتربوا من مشارف يثرب... حيث كانت الأرض والقلوب تنبض بشوق لم تشهده البشرية من قبل.

نظر الأب إلى طارق، وابتسم قائلاً:

— وهنا يا طارق، سنشهد إشراق يثرب، وانبلاج فجر الدولة الإسلامية الأولى في قباء والمدينة المنورة... وهذا ما سنعيش أفراحه وتفاصيله الدقيقة في الفصل القادم!

# الفصل الثالث عشر

في المساء التالي، كانت غرفة المكتبة تفيض بأجواء من السكينة الروحية، بينما كان "طارق" يجلس أمام دفتره المفتوح، يستعيد بأمل وشغف مشاهد النجاة الأسطورية من غار ثور وحادثة سراقة بن مالك. ما إن دخل والده ومعه كوبه المعتاد حتى بادره طارق بابتسامة مشرقة:

— أبي! لقد عشنا في الفصل السابق دقائق يحبس فيها العالم أنفاسه؛ بين مطاردة قريش، وتخفي الغار، ووعود سراقة بسواري كسرى. أين وصل الركب النبوي الشريف الآن؟ وكيف كان شعور أهل يثرب وهم ينتظرون أطهر قدمين تطآن أرضهم؟

جلس الأب برفق، وارتشف رشفة دافئة من كوبه، ثم قال بصوت مفعم بالحنان والإجلال:

— يا بني، كانت يثرب تعيش أياماً لا تشبهها أيام في تاريخ البشرية. بعد أن بلغهم خبر خروج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة، كان الأنصار (الأوس والخزرج) يخرجون كل يوم بعد صلاة الصبح إلى ظاهرة

**الحَرّة (أطراف المدينة) ينتظرون قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم. يبقون في حر الشمس الصاحرة يترقبون الأفق، حتى إذا اشتد حر الظهيرة ولم يَرَوا أحداً، رجعوا إلى منازلهم وأطماعهم معلقة بلقائه.**

**وفي يوم الاثنين، الثاني عشر من شهر ربيع الأول (وهو نفس الشهر الذي ولد فيه)، خرجوا كعادتهم وانتظروا حتى أرهقهم الحر فرجعوا.**

**وفجأة! صعد رجل من اليَهُودِ على أُطُمٍ (حصن مرتفع) من آطام يثرب لشأن يخصه، فنظر نحو الطريق، فبَصُرَ برَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ يَبْضُونَ بِيَاضًا (ثيابهم بيضاء) يَزُولُ بِهِمُ السَّرَابُ.**

**فلم يملك اليهودي نفسه أن صرخ بأعلى صوته نادياً أهل يثرب:**

***"يَا مَعْشَرَ قَيْلَةَ! (يعني الأوس والخزرج)، هَذَا جَدُّكُمُ (حظكم وعظمتكم) الَّذِي تَنْتَظِرُونَ!".***

**سأل طارق بلهفة وقد تملكه التأثر:**

**— وماذا حدث في يثرب في تلك اللحظة يا أبي؟**

**أجاب الأب بنبرة تجسد البهجة التاريخية:**

— فزع المسلمون إلى سلاحهم وشعارهم، وخرجوا لاستقبال رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسكينة والتعظيم. فتقلت الأصوات بالتكبير والتحميد، واهتزت يثرب هزاً لم تشهده قط في تاريخها!

نزل النبي صلى الله عليه وسلم أول ما نزل في منطقة "قُبَاءٍ" (في العوالي جنوب المدينة)، ونزل في ضيافة الشيخ الجليل كَلْثُومِ بْنِ الهِدْمِ (من الأوس)، وكان يجلس مع الناس في دار سَعْدِ بْنِ خَيْثَمَةَ.

وكان أكثر الأنصار ممن لم يروا النبي صلى الله عليه وسلم يظنون أن أبا بكر هو الرسول؛ لأن أبا بكر كان أسنّ وكان يستقبل الناس، حتى زالت الشمس وجاءت الشمس على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقام أبو بكر رضي الله عنه وظلله ببدائه، فعرف الناسُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بتواضعه وهيبته.

أقام النبي صلى الله عليه وسلم في قباء أربعة أيام (الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس). وفي هذه الأيام الأربعة، وضع اللبنة الأولى لأول مسجد بُني في الإسلام: "مَسْجِدُ قُبَاءٍ".

وشارك صلى الله عليه وسلم في بنائه بنفسه، ينقل الحجارة مع أصحابه حتى غطى التراب بطنه الشريف، وأنزل الله في شأن هذا المسجد وفي أهل قباء قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة:

لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ [التوبة: 108].

هتف طارق مأخوذاً بالمشهد:

— "رجال يحبون أن يتطهروا"! وماذا كان سبب هذه التزكية الإلهية الخاصة لأهل قباء يا أبي؟

ابتسم الأب وقال:

— روى أبو داود والترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية سأل أهل قباء: *"يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَثْنَى عَلَيْكُمْ فِي الطُّهُورِ، فَمَا طَهُورُكُمْ؟"* قالوا: "يا رسول الله، إنا نتبع الحجارة بالماء" (أي يستنجون بالماء بعد الاستجمار بالحجارة). فقال النبي صلى الله عليه وسلم: *"هُوَ ذَاكَ، فَعَلَيْكُمُوهُ"*.

سأل طارق بتركيز:

— ومتى تحرك النبي صلى الله عليه وسلم من قباء إلى قلب يثرب ليقيم فيها مقره الدائم؟

أكمل الأب قائلاً:

— في صبيحة يوم الجمعة، ركب النبي صلى الله عليه وسلم ناقته "القَصْوَاءَ" ومعه أبو بكر، وحاف به الأنصار يتشلحون السيوف إجلالاً وحماية. وأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في وادي "رَانُوناءَ"، فصلى بهم أول صلاة جمعة في الإسلام، وخطب فيهم خطبة عظيمة حثهم فيها على التقوى والائتلاف.

ثم مضى راكباً ناقته نحو قلب المدينة. وكانت دراما الحب والترحيب تبلغ أوجها يا طارق! كلما مر بدَارٍ من دور الأنصار، أخذ الكبراء والأشراف بزمام ناقته وقالوا بشوق ورجاء: "هلمّ يا رسول الله إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة! انزل عندنا!".

فكان النبي صلى الله عليه وسلم يرد عليهم بابتسامته الحانية وحكمته النبوية الصافية، ويقول:

*"خَلُّوا سَبِيلَهَا، فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ!"*.

**استمرت الناقة تمشي وسط سكيك المدينة، والولائد والصبيان يخرجون في الطرقات والأطام يرتجزون بالأنشودة الخالدة:**

***طَلَعَ البَدْرُ عَلَيْنَا * مِنْ ثَنِيَّاتِ الوَدَاعِ**

***وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا * مَا دَعَا لِلَّهِ دَاعِ**

***أَيُّهَا المَبْعُوثُ فِينَا * جِئْتَ بِالأَمْرِ المُطَاعِ**

**— يا لجمال هذا الاستقبال! وأين بركت الناقة المأمورة في النهاية؟**

**— بركت الناقة عند مربد (مربد: جَرين يُجفف فيه التمر) كان لغلامين يتيمين من الأنصار هما سَهْلٌ وَسُهَيْلٌ (ابنا عمرو)، في بني النجار (أخوال أبي طالب وأخوال عبد المطلب).**

**بركت الناقة، ثم قامت وطافت قريلاً ثم رجعت فبركت في نفس الموضع وزمزمت وضربت بغرانها. فنزل النبي صلى الله عليه وسلم عنها، وقال:** *"هَذَا المَنْزِلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ"*.

وسارع أبطال الأنصار يستضيفونه، فجاء أَبُو أَيُّوبَ الأَنْصَارِيُّ (خالد بن زيد) رضي الله عنه، فأخذ رحل النبي صلى الله عليه وسلم وحمله مسرعاً إلى بيته. فقال النبي صلى الله عليه وسلم بفكاهة ومودة: *"المَرْءُ مَعَ رَحْلِهِ"*. ونزل النبي صلى الله عليه وسلم ضيفاً عند أبي أيوب الأنصاري حتى بُني مسجده وبيوته.

أنصت طارق بكل جوارحه وسأل:

— وكيف بدأت مرحلة التأسيس الحقيقية للدولة الإسلامية في المدينة؟ ما هي القواعد التي وضعها النبي صلى الله عليه وسلم لبناء هذا المجتمع الجديد؟

أجاب الأب بنبرة واضحة ومحددة:

— قام مجتمع المدينة الفاضل على ثَلَاثِ رَكَائِزَ اسْتِرَاتِيجِيَّةٍ كُبْرَى صنعت قوة الإسلام:

1. الركيزة الأولى: بناء المسجد النبوي الشريف

اشترى النبي صلى الله عليه وسلم المربد من الغلامين اليتيمين بسعر عادل (ورفض أن يأخذه هبة)، وأمر ببناء المسجد النبوي فيه. وكان

**المسجد صريحاً بسيطاً؛ جدرانه من اللبن (الطبين النيء)، وسقفه من جريد النخل، وعمده من جذوع النخل، وفرشه من الرمل والحصباء.**

**وشارك النبي صلى الله عليه وسلم في بنائه بيديه الشريفتين؛ ينقل اللبن مع الصحابة ويحمل الحجارة وهو يرتجز معهم رداً على تعبهم:**

***"اللَّهُمَّ لاَ عَيْشَ إِلاَّ عَيْشُ الآخِرَةِ * فَاغْفِرِ لِلأَنْصَارِ وَالمُهَاجِرَةِ"***

**فكان المسجد ليس مجرد مكان للصلاة والصوم، بل كان مقر الحكومة، وبرلمان الشورى، ومدرسة التعليم، ومأوى المستضعفين (أهل الصُّفَّةِ)، ومشفى الجرحى، ومركز إدارة الجيوش.**

**2. الركيزة الثانية: المؤاخاة التاريخية بين المهاجرين والأنصار**

**تعدل الأب في جلسته ونظر إلى طارق وقال:**

**— هذه أعظم تجربة تكافل واحتواء اجتماعي في تاريخ البشرية يا طارق! آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين تسعين رجلاً (اربعين من المهاجرين وأربعين من الأنصار) في دار أنس بن مالك.**

**المهاجرون خرجوا من مكة لا يملكون شروى نقير؛ تركوا ديارهم وأموالهم وتجارتهم. والأنصار أهل زرع وأموال. فجعل النبي صلى الله عليه وسلم الأنصاري والمهاجر أخوين شقيقين، يتوارثان دون ذوي الأرحام (حتى نُسخ التوارث بالقرآن لاحقاً وبقيت الأخوة).**

**اسمع إلى قصة عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ المهاجر مع أخيه الأنصاري سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ رضي الله عنهما!**

**قال سعد بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف بصدر رحب وإيثار نزار: "إني أكثر الأنصار مالاً، فأقاسمك مالي نصفين! ولي زوجتان، فانظر أيهما أعجب إليك حتى أطلقها وتتزوجها بعد عدتها!".**

**فماذا كان رد المهاجر العفيف الشريف عبد الرحمن بن عوف؟**

**لم يستغل كرم أخيه، بل قال بكلمات تصنع عزة المسلم:**

***"بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ! لَا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ... هَلْ مِنْ سُوقٍ هَاهُنَا تُبَاعُ فِيهِ التِّجَارَةُ؟".***

فدلوه على سُوقِ "بَنِي قَيْنُقَاعَ"، فذهب واشترى وباع، فما مرّت أيام قليلة حتى جاء ورائحة الطيب تزفو منه، فسأله النبي: *"مَهْيَمْ يا عبد الرحمن؟"* قال: تزوجت امرأة من الأنصار على وزن نواة من ذهب!

لقد ضرب الأنصار أروع أمثلة الإيثار، وضرب المهاجرون أروع أمثلة العفة والعمل، فخلدهم القرآن الكريم في سورة الحشر:

وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [الحشر: 9].

3. الركيزة الثالثة: الوثيقة النبوية (دستور المدينة)

أكمل الأب بنبرة تعكس النضج السياسي النبوي:

— وضع النبي صلى الله عليه وسلم وثيقة مكتوبة تُعد أول وثيقة حقوقية ودستورية مدنية تنظم التعايش بين طوائف المجتمع (المهاجرون، الأنصار، واليهود بمختلف قبائلهم).

تضمنت الوثيقة بنوداً صارمة:

- أن المسلمين أمة واحدة من دون الناس.
- حرية الاعتقاد والتدين مكفولة لليهود؛ "لليهود دينهم وللمسلمين دينهم".
- حماية المظلوم نصرته كائناً من كان، وإلغاء الثارات الجاهلية.
- الدفاع المشترك عن يثرب ضد أي عدوان خارجي؛ فمن حارب يثرب حاربه الجميع.
- المرجع الفاصل في أي خلاف وقع بين أطراف الوثيقة هو إلى الله وإلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

تنهد طارق مبهوراً بهذه الدقة الدستورية، وقال:

— دولة تقوم على المسجد، والتكافل الاجتماعي، والدستور المدني العادل! ولكن يا أبي.. كيف أُسس نداء الصلاة الذي يجمع الناس لهذا المسجد؟ كيف شُرع الأذان؟

ابتسم الأب وقال:

— قصة تَشْرِيعِ الأَذَانِ قصة ملهمة ورقيقة تظهر كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يشارك أصحابه في الأفكار.

**لما بني المسجد، تشاور النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه: كيف نجمع الناس للصلاة؟**

**قال بعضهم: انصبوا راية عند حضور الصلاة فإذا رأوها أعلم بعضهم بعضاً. فلم يعجبه ذلك.**

**وقال بعضهم: اضربوا بالنَّاقُوسِ (كما تفعل النصارى). فكرهه النبي لأنه تشبه بالنصارى.**

**وقال بعضهم: انفخوا في البُوقِ (كما تفعل اليهود). فكرهه لأنه تشبه باليهود.**

**وقال بعضهم: أوقدوا ناراً على تلّ (كما تفعل المجوس). فكرهه.**

**فانصرف الصحابة مهمومين يفكرون في حل.**

**وفي تلك الليلة، رأى الصحابي الجليل عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ رَبِّهِ رضي الله عنه رؤيا صادقة في منامه!**

**- رأى ماذا يا أبي؟**

— قال عبد الله بن زيد: "طَافَ بِي وَأَنَا نَائِمٌ رَجُلٌ عَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَخْضَرَانِ، وَبِيَدِهِ نَاقُوسٌ يَحْمِلُهُ. فَقُلْتُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، أَتَبِيعُ هَذَا النَّاقُوسَ؟

قَالَ: وَمَا تَصْنَعُ بِهِ؟

قُلْتُ: نَدْعُو بِهِ إِلَى الصَّلَاةِ.

قَالَ: أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ؟

قُلْتُ: بَلَى!

قَالَ: تَقُولُ:

اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ... اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ...

أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ... أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ...

أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ... أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ...

حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ... حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ...

حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ... حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ...

**اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ...**

**لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ..."**

**فلما أصبح عبد الله بن زيد، غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره برؤياه.**

**فقال النبي صلى الله عليه وسلم بيقين النبوة:**

***"إِنَّهَا لَرُؤْيَا حَقٍّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ! فَقُمْ مَعَ بِلَالٍ فَأَلْقِ عَلَيْهِ مَا رَأَيْتَ فَلْيُؤَذِّنْ بِهِ، فَإِنَّهُ أَنْدَى صَوْتًا مِنْكَ!".***

**فقم عبد الله بن زيد، وجعل يلقي الكلمات على بِلَالِ بْنِ رَبَاحٍ، وبلال يرفع بها صوته الشجي العذب يزلزل أفق المدينة بنور التوحيد!**

**فلما سمع عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه نداء بلال وهو في بيته، خرج يجر رداءه مستعجلاً وقال: "والذي بعثك بالحق يا رسول الله، لقد رأيت مثل ما رأى!". فقال النبي صلى الله عليه وسلم: *"فَلِلَّهِ الحَمْدُ"*.**

**أغمض طارق عينيه لتخيل صوت بلال وهو يملأ أفق يثرب بالأذان، وقال بصوت خافت:**

**— يا لروعة الصوت وهو يرتفع لأول مرة في تاريخ الأرض! التوحيد والأذان يملآن يثرب بالأمن والسكينة. ولكن يا أبي.. ألم تحاول قريش ضرب هذه الدولة الوليدة في مهدها؟ وكيف بدأت مرحلة الدفاع والمواجهة العسكرية بين مكة والمدينة؟**

**أغلق الأب الكتاب برفق، ونظر إلى طارق بابتسامة حازمة وقال:**

**— هنا يا بني، ينتهي عهد الاستضعاف المكي، ويبدأ عهد العزة والتمكين في المدينة. صُدقت آيات القتال، وبدأت سرايا الاستطلاع النبوي تقطع طرق التجارة المكية، حتى وقعت اللحظة الفاصلة التي سمّاها القرآن الكريم "يوم الفرقان"... إنها "غَزْوَةُ بَدْرٍ الكُبْرَى"!**

**وهذا ما سنعيش تفاصيله الميدانية والعسكرية والربانية في الفصل القادم!**

# الفصل الرابع عشر

في مساء هادئ، جلس طارق أمام والده في المكتبة المعتادة، وقد فتح كراسته والابتسامة تعلو وجهه، أخذ يقلب صفحات السيرة التي خُطت بأدق التفاصيل الإنسانية والتربوية، ثم قال بنبرة يملؤها الشغف:

— أبي، توقفنا البارحة عند تشريع الأذان وبناء مجتمع المدينة وتأسيس قواعد الدولة على التكافل والدستور المدني. ولكن، كيف تحول هذا الاستقرار في المدينة إلى مواجهة عسكرية مع قريش؟ وكيف أذن الله للمسلمين بالقتال بعد سنين طويلة من الصبر والكف عن الأذى في مكة؟

ابتسم الأب ونظر إلى ابنه بنظرة ملؤها الوقار والتقدير، ثم أخذ نفساً عميقاً وقال:

— يا طارق، لم يكن الإسلام يوماً دين عدوان أو سفك للدماء، بل كان عهد مكة عهد تربية وصبر وإعداد للأرواح. ولما صار للمسلمين وطن ودولة في المدينة، وكان أموال المهاجرين وديارهم قد غُصبت في مكة

من قبل قريش، نزل إذن السماء الحاسم للذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق. نزل قول الله تعالى في سورة الحج:

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ [الحج: 39-40].

وكانت هذه الآيات بداية مرحلة جديدة؛ مرحلة فرض الهيبة وحماية الدولة الجديدة.

سأل طارق بتركيز:

— وكيف بدأ النبي صلى الله عليه وسلم بتطبيق هذا الإذن ميدانياً؟

أجاب الأب مفصلاً:

— بدأ بإرسال السَّرَايَا وَالغَزَوَاتِ الاِسْتِكْشَافِيَّةِ (كسرية حمزة بن عبد المطلب، وسرية عبيدة بن الحارث، وسرية عبد الله بن جحش)؛ لترصد طرق التجارة المكية المتجهة إلى الشام، وفرض حصار اقتصادي على قريش لإرغامها على السلام والكف عن محاربة الدعوة.

وفي هذه الأثناء، وتحديداً في شعبان من السنة الثانية للهجرة، حدث حدثان إيمانيان وتشرعيان جليلان ربطا قلوب المسلمين بربهم:

1. تَحْوِيلُ القِبْلَةِ: بعد أن صلى المسلمون نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، نزل الأمر الرباني بتحويل القبلة نحو الكعبة المشرفة في مكة، استجابة لرغبة النبي صلى الله عليه وسلم وتقليباً لوجهه في السماء:

قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ [البقرة: 144].

2. فَرْضُ صِيَامِ رَمَضَانَ: حيث فرض الله الصيام لتهذيب النفوس وصقل تقواها، استعداداً للاختبارات الكبرى القادمة.

— تحويل القبلة وفرض الصيام في السنة الثانية للهجرة! وما هي الأسباب المباشرة التي أدت إلى اندلاع معركة بدر الكبرى في نفس هذا العام؟

**تعدل الأب في جلسته، وأصبحت نبرته أكثر حماسة وجدية:**

**— في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، خرجت قافلة تجارية كبرى لقريش قادمة من الشام، تحمل أموالاً طائلة وشحنات عظيمة، وكان يقودها أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ مع أربعين رجلاً فقط حراسة لها.**

**فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم بهذه القافلة، ندب أصحابه وقال بوضوح:**

***"هَذِهِ عِيرُ قُرَيْشٍ فِيهَا أَمْوَالُهُمْ، فَاخْرُجُوا إِلَيْهَا، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُنْفِلَكُمُوهَا".***

**خرج النبي صلى الله عليه وسلم في ثلة قليلة لم تكن تتوقع حرباً شاملاً؛ كان عددهم ثَلَاثَمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا (بين 313 و 317)، ومعهم فرسان فقط (فرس للمقداد بن عمرو، وفرس للزبير بن العوام)، وسبعون بعيراً يعتقبون عليها (يتناوبون الركوب)، حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب وأبا لبابة كانوا يعتقبون على بعير واحد!**

فإذا جاء دور النبي صلى الله عليه وسلم ليمشي، قال له علي وأبو لبابة: "يا رسول الله، اركب ونحن نمشي عنك!"، فيرد عليهما بنبل وتواضع القائد:

*"مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي، وَلَا أَنَا بِأَغْنَى عَنِ الأَجْرِ مِنْكُمَا!"*.

سأل طارق بشغف:

— وكيف علم أبو سفيان بخروج المسلمين لقافلته؟ وماذا فعل لإنقاذها؟

أجاب الأب مستدركاً:

— كان أبو سفيان حذراً يتجسس الأخبار، فلما علم بخروج المسلمين، استأجر رجلاً يُدعى ضَمْضَمَ بْنَ عَمْرٍو الغِفَارِيَّ، وأرسله سريعاً إلى مكة ليستصرخ قريشاً.

دخل ضمضم مكة بأسلوب درامي مفزع؛ جدع أنف بعيره، وشق قميصه، وحول رحله، ووقف على بعيره في بَطْنِ الوَادِي يصرخ بأعلى صوته:

"يا معشر قريش! اللطيمةَ! اللطيمةَ! أموالكم مع أبي سفيان عرض لها محمد وأصحابه! لا أرى أن تدركوها! الغوثَ! الغوثَ!".

ففتزعت قريش فتزة هائلة، وشحنتها النخوة والكبرياء، وقالوا: "أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي؟ كلا والله!".

فخرجت قريش بكل ثقلها وكبرائها؛ أربعمائة وألف مقاتل، معهم مائة فرس، وثلاثمائة درع، وقينات (مغنيات) يضربن بالدفوف ويهجون المسلمين. لم يتخلف من أشرافهم أحد إلا أبو لهب (أرسل مكانه رجلاً كان يطلبه ديناً).

وفي أثناء الطريق، استطاع أبو سفيان بدكائه أن يغير مسار القافلة ويسلك بها طريق الساحل النادر، فنجت القافلة من أيدي المسلمين!

فأرسل أبو سفيان إلى جيش قريش يقول لهم: "إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله، فارجعوا!".

فهمّ الناس بالرجوع، لكن فرعون هذه الأمة أَبَا جَهْلٍ استكبر وقال بصلف وطغيان:

"والله لا نرجع حتى نرد بدراً! فنقيم فيها ثلاثاً، ننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتُعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً!".

هتف طارق وهو يحبس أنفاسه:

— كبرياء وغرور أوردهم موارد الهلاك! وماذا كان موقف النبي صلى الله عليه وسلم حين علم أن القافلة نجد، وأن قريشاً خرجت بجيش عظيم للقتال؟

أجاب الأب بنبرة تعكس حنكة الشورى والقيادة:

— هنا تغيرت المعطيات ميدانياً وعسكرياً؛ فلم تعد المسألة أخذ قافلة بلا قتال، بل أصبحت مواجهة حتمية مع جيش مدجج بالسلاح ثلاث أضعاف عدد المسلمين!

ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ليفرض الحرب على أصحابه دون شورى، خاصة وأن أهل يثرب (الأنصار) إنما بايعوه في العقبة على حمايته داخل المدينة، لا على القتال خارجها.

فعقد النبي صلى الله عليه وسلم مستشارية عسكرية حاسمة في أرض المعركة، وقال للصحابة: *"أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ!"*.

فقام المِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو (من المهاجرين) وقال كلمته الخالدة التي أثلجت صدر النبي:

"يا رسول الله، امضِ لما أراك الله فنحن معك! والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ، ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون! فوالذي بعثك بالحق لَوْ سِرْتَ بِنَا إِلَى بَرْكِ الغِمَادِ (أقصى اليمن) لَجَاهَدْنَا مَعَكَ دُونَهُ حَتَّى تَبْلُغَهُ!".

فسرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، ثم أعاد كلمته: *"أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ!"* (وهو يريد الأنصار).

فطن سيد الأنصار وقائدهم سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ رضي الله عنه أن النبي يقصدهم، فقام وقال بشجاعة وإيمان لا يتدعزع:

"والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟"

قال: *"نَعَمْ"*.

**فقال سعد كلمته التاريخية التي تزن الجبال:**

**"آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة! فامضِ يا رسول الله لما أردت فَنَحْنُ مَعَكَ! فوالذي بعثك بالحق، لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا البَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ! وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا، إِنَّا لَصُبُرٌ فِي الحَرْبِ، صُدُقٌ فِي اللِّقَاءِ، وَلَعَلَّ اللَّهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ!".**

**دمعت عينا طارق تأثراً وقال:**

**— يا لروعة الوفاء والشهامة! كلمات تجعل الجبال ترتجف! وكيف أثرت هذه الكلمات في روح النبي صلى الله عليه وسلم؟**

**— أشرق وجه النبي صلى الله عليه وسلم فرحاً وأملاً، وقال يبشرهم ببصيرة النبوة والوحي:**

***"سِيرُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ! وَوَاللَّهِ لَكَأَنِّي الآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ القَوْمِ!".***

ثم جعل النبي صلى الله عليه وسلم يشير بيده الشريفة إلى الأرض في بدر ويقول: *"هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَهَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ"*.

قال الصحابة: فما ماط (ما تجاوز) أحد منهم الموضع الذي أشار إليه رسول الله!

سأل طارق بتركيز ميداني:

— وكيف اختار النبي صلى الله عليه وسلم موقع المعركة وتنظيم الصفوف؟

أجاب الأب بنبرة تبرز الدهاء العسكري والتفاعل النبوي مع آراء أصحابه:

— نزل النبي صلى الله عليه وسلم بالجيش عند أدنى ماء من بدر. فقام صحابي جليل خبير بالحروب وهو الحُبَابُ بْنُ المُنْذِرِ رضي الله عنه، وسأل النبي بأدب واحترافية:

"يا رسول الله! أرأيت هذا المنزل؛ أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتعداه ولا نتقصر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟"

فقال النبي صلى الله عليه وسلم بكل تواضع القائد العظيم: *"بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالحَرْبُ وَالمَكِيدَةُ"*.

فقال الحباب: "يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل! نَهَضَ بالناس حتى نأتي أَدْنَى مَاءٍ مِنَ القَوْمِ (أقرب بئر من قريش) فننزله، ثم نُغَوِّرُ (نردم) ما وراءه من القُلُبِ (الآبار)، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون!".

فقال النبي صلى الله عليه وسلم فوراً: *"لَقَدْ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ!"*.

ونهض النبي بالجيش ونفذ خطة الحباب بحذافيرها!

ثم بنى المسلمون للنبي صلى الله عليه وسلم عَرِيشًا (مقراً للقيادة) على تل مرتفع يطل على الميدان، وكان معه فيه أخلص أصحابه وشجاعهم أبو بكر الصديق يحرسه.

— وماذا حدث في ليلة المعركة يا أبي؟

— في ليلة الجمعة، السابع عشر من شهر رمضان، أنزل الله على المسلمين نعاساً أَمَنَةً منه يغشاهم ليذهب عنهم الخوف،

وأنزل مطراً خفيفاً يثبت به الأرض تحت أقدامهم، ورصدت الآيات القرآنية في سورة الأنفال هذا اللطف الإلهي:

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ [الأنفال: 11].

وبات النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة قائماً يصلي تحت شجرة، يدعو ربه ويضرع إليه، ويلح في الدعاء حتى سقط رداؤه عن كتفيه، وهو يقول:

*"اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي! اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَةَ (الجماعة) مِنْ أَهْلِ الإِسْلَامِ لا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ!".*

فأخذ أبو بكر رداؤه ووضعه على كتفيه وقال مشفقاً: "يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك!".

سأل طارق، وقد بلغت الإثارة لديه ذروتها:

— وكيف بدأت المعركة في الصباح؟

أجاب الأب بصوت مفعم بالهيبة:

— في صباح الجمعة، نظم النبي صلى الله عليه وسلم صفوف المسلمين كأنهم بنيان مرصوص (وهي طريقة جديدة في القتال لم تكن تعرفها العرب التي تقاتل بأسلوب الكر والفر).

وبدأت المعركة بالمبارزة الفردية كعادة الحروب يومئذ؛ خرج من جيش المشركين ثلاثة من عتاتهم: عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَأَخُوهُ شَيْبَةُ، وَابْنُهُ الوَلِيدُ بْنُ عُتْبَةَ، ونادوا للمبارزة.

فخرج لهم ثلاثة من شباب الأنصار، فقال المشركون بكبرياء: "من أنتم؟" قالوا: "نفر من الأنصار". قالوا: "لا حاجة لنا فيكم، إنما نريد أفقاءنا من قومنا (بني عمنا)! يا محمد! أخرج إلينا أندادنا من قومنا!".

فقال النبي صلى الله عليه وسلم بثقة شجاعة:

*"قُمْ يَا عُبَيْدَةُ بْنَ الحَارِثِ، قُمْ يَا حَمْزَةُ، قُمْ يَا عَلِيُّ!".*

فبارز حمزةُ شيبةَ فقتله فوراً، وبارز عليٌّ الوليدَ فقتله فوراً، واختلف عبيدة وعتبة ضربتين فجُرحا جميعاً، فكرّ حمزة وعلي

بسيفيهما على عتبة فقتلاه، وحملا عبيدة وجرحه يثغب دماً (واستشهد عبيدة لاحقاً في طريق العودة).

هتف طارق فرحاً:

— بداية ساحقة للمسلمين! بطلان من صناديد مكة سقطا في الدقائق الأولى!

— نعم! وحين رأى المشركون صرعى قادتهم، هجموا بجيشهم كاملاً كالموج. وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ألا يبدأوا بالهجوم حتى يقترب العدو، وأن يرموهم بالنبل.

وفجأة! أخذ النبي صلى الله عليه وسلم كفاً من الحصباء (التراب والحصى الصغير)، ورمى بها في وجوه المشركين وهو يقول: *"شَاهَتِ الوُجُوهُ!"*.

فما بقي مشرك في الميدان إلا ودخلت في عينيه ومنخريه حثوة من ذلك التراب! وأنزل الله في ذلك قوله:

وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ [الأنفال: 17].

ثم نزل الدعم السماوي المباشر؛ أنزل الله أَلْفًا مِنَ المَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ يقاتلون مع المسلمين! يرتدون عمائم بيضاء قد أرسلوها بين أكتادهم، يقودهم جبريل عليه السلام على فرس أنثى مجنحة.

روى البخاري ومسلم أن الصحابي كان يسمع صوت السوط فوق رأس المشرك وصوت الفارس يقول: "أقدم حيزوم!"، فيسقط المشرك مقتولاً أو مقطوع العنق قبل أن يصل إليه سيف المسلم!

سأل طارق بتركيز:

— وكيف كانت نهايات طغاة قريش كيف كانت نهاية أبي جهل وأمية بن خلف؟

ابتسم الأب وقال:

— قُتلوا جميعاً أشنع قتلة!

أما أَبُو جَهْلٍ؛ فقد قتله غلامان صغيران من الأنصار في سن أربعة عشر عاماً: مُعَاذُ بْنُ عَفْرَاءَ، وَمُعَاذُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الجَمُوحِ!

جاء أحدهما إلى عبد الرحمن بن عوف في المعركة وقال سراً: "يا عم، أرني أبا جهل!" قال: وما تصنع به يا ابن أخي؟ قال: "أُخبرت أنه يسب رسول الله! والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأقرب منا أجلاً!".

فدلهما عليه، فضرباه بسيفيهما حتى أثخناه. ثم جاء عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (وكان مستضعفاً يضربه أبو جهل في مكة) فوجده يجود بنفسه، فاحتز رأسه، وجاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم. فقال النبي: *"هَذَا فِرْعَوْنُ هَذِهِ الأُمَّةِ!"*.

وأما أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ (الذي كان يعذب بلالاً بالصخرة في رمضاء مكة)؛ فقد وقع أسيراً في يد عبد الرحمن بن عوف. فلما رآه بلال بن رباح رضي الله عنه، صرخ بصوته الذي هز الميدان: "رَأْسُ الكُفْرِ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ! لا نَجَوْتُ إِنْ نَجَا!". واجتمع عليه المسلمون فقتلوه.

— انتصار ساحق ومذهل بكل المقاييس! ما هي النتائج النهائية لهذه الملحمة العظيمة؟

**— انتهت المعركة بهزيمة ساحقة لقريش؛ قُتل منهم سَبْعُونَ من كبار قادتهم وصناديدهم، وأُسر منهم سَبْعُونَ آخرون!**

**واستُشهد من المسلمين أَرْبَعَةَ عَشَرَ رَجُلًا فقط (ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار).**

**وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بجثث قتلى المشركين (الأربعين من كبرائهم) أَن تُلقى في قَلِيبِ بَدْرٍ (بئر مطوية قديمة).**

**ثم وقف النبي صلى الله عليه وسلم على شفير القليب وناداهم بأسمائهم وأسماء آبائهم:**

***"يَا فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ، وَيَا فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ! أَيَسُرُّكُمْ أَنَّكُمْ أَطَعْتُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؟ فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟"*.**

**فقال عمر بن الخطاب مستغرباً: "يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟!"**

**فقال النبي صلى الله عليه وسلم بكلام يقيني:**

***"وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُوا!".***

**أنصت طارق ملئ فؤاده، وتنهد بارتياح ومجد، وقال:**

**— يا الله! حقاً إنه "يوم الفرقان" الذي فرق الله به بين الحق والباطل، وأعز به الإسلام ودولته الوليدة!**

**أومأ الأب برأسه مؤكداً، وأغلق مجلد السيرة برفق وقال:**

**— نعم يا بني.. زلزلت بدر الجزيرة العربية بأكملها، وأدركت قريش أن قوتها ومكانتها قد جُرحت جرحاً بالغاً، فبدأت تجهز لثأر عظيم وجيش جرار استغرق إعداده عاماً كاملاً... لتقع المحنة الكبرى والدروس التربوية القاسية في "غَزْوَةِ أُحُدٍ"!**

**وهذا ما سنغوص في تفاصيله الدقيقة والعميقة في الفصل القادم!**

# الفصل الخامس عشر

في مساء اليوم التالي، كان "طارق" يجلس في زاوية المكتبة الدافئة، وأوراقه منتظمة أمامه، وعيناه تشعان بتركيز بالغ. دخل والده حاملاً مجلداً ضخماً من مجلدات السيرة النبوية، وجلس قبالته، فبادره طارق بابتسامة متأملة وقال:

— أبي، بعد انتصار المسلمين العظيم في بدر الكبرى، وإعزاز الدولة الإسلامية الفتية في المدينة، كيف كانت ردة فعل قريش؟ كيف تحول ذلك العار والهوان الذي لحق بصناديدهم في قليب بدر إلى محرك لجمع الحشود والتجييش؟ وكيف واجه النبي صلى الله عليه وسلم هذا الخطر الجديد في السنة الثالثة للهجرة؟

ابتسم الأب ابتسامة ملؤها التقدير والوقار، ثم وضع يده على المجلد الضخم وقال بصوت دافئ وعميق:

— يا طارق، لم تكن قريش لتنام على ثأرها الجريح. لقد قُتل أربعون من كبار قادتهم في بدر، وأصبحت تجاراتهم الشامية مهددة كلياً. فقام ساداتهم الجدد وعلى رأسهم أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، وعِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ، بقرار استراتيجي: وقف عير القافلة التي نجت في بدر، ورصد كل أرباحها (وكانت ألف بعير وخمسين ألف دينار) لتجهيز جيش جارف لا يبقي ولا يذر!

وفي ذلك نزل قول الله تعالى في سورة الأنفال يصف إنفاقهم:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ [الأنفال: 36].

استغرق التجهيز عاماً كاملاً، حتى خرجت قريش في شوال من السنة الثالثة للهجرة بجيش جرار بلغ ثَلَاثَةَ آَلَافِ مُقَاتِلٍ؛ معهم مائتا فرس يقودها خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ (قبل إسلامه)، ومعهم خمسة عشر امرأة تقدمهن هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ زوجة أبي سفيان، يُحَرِّضْنَ الرجال وينفخن في نيران الثأر بدفوفهن وأشعارهن!

سأل طارق بتركيز شديد:

— ثلاثة آلاف مقاتل وفرسان ونساء! وكيف علم النبي صلى الله عليه وسلم بمسير هذا الجيش الجرار؟

أجاب الأب موثقاً من السير الصحيحة:

— عن طريق جهاز الاستخبارات النبوي؛ فقد أرسل عمه العَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ (وكان بمكة يكتتم إسلامه) كتاباً سرياً مستعجلاً مع رجل من بني غفار، يخبر فيه النبي صلى الله عليه وسلم بتفاصيل الجيش وعدده وعتاده. فوصل الكتاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو في قباء، فقرأه عليه أُبي بن كعب، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالكتمان وحراسة المدينة.

ولما اقترب جيش المشركين ونزل برأس الوادي مقابل أحد شمالي المدينة، عقد النبي صلى الله عليه وسلم مجلس شورى عسكرياً حاسماً مع أصحابه.

— وماذا كان رأي النبي صلى الله عليه وسلم في خطة الدفاع يا أبي؟

— كان رأي النبي صلى الله عليه وسلم ورأي كبار الصحابة (ومنهم عبد الله بن أبيّ بن سلول رأس المنافقين) أن يَبْقَوْا فِي المَدِينَةِ وَلَا يَخْرُجُوا مِنْهَا؛ فإن دخل العدو الأزقة، قاتلهم الرجال من بين الجدران وفي

الشوارع، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوق السطوح، والمدينة محصنة بأطامها ودورها الملتصقة.

ولكن شباب الصحابة، وخاصة ممن لم يشهدوا بدراً وتوقوا للشهادة، ومعهم حمزة بن عبد المطلب، ألحوا حماساً وقالوا: "يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنّا جَبُنَّا عنهم وضعفنا!".

فقال حمزة رضي الله عنه: "والذي أنزل عليك الكتاب، لا أطعم طعاماً حتى أجاهدهم بسيفي خارج المدينة!".

فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم إصرار الأغلبية الحماسي، نزل على رأي الشورى احتراماً للمبدأ الديمقراطي الإسلامي. ودخل بيته فلبس لَأْمَتَهُ (درعه وسلاحه)، وخرج متوشحاً سيفه.

تندم الشباب وقالوا: "ما كان لنا أن نخالف رأيك يا رسول الله، فاصنع ما شئت وإن أحببت أن تقعد فاقعد!".

فقال النبي صلى الله عليه وسلم بكلمات القيادة الحازمة التي لا تتراجع بعد اتخاذ القرار:

***"مَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لَأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ!".***

**هتف طارق مأخوذاً بالعبارة:**

**— يا لصلابة القيادة ونفاد العزيمة! وكم كان عدد جيش المسلمين وهو يخرج لملاقاة ثلاثة آلاف؟**

**— خرج النبي صلى الله عليه وسلم في أَلْفِ مُقَاتِلٍ. وفي منتصف الطريق، عند موضع يُدعى "الشَّوْطِ"، وقعت خيانة غادرة زلزلت الصف!**

**انسحب رأس المنافقين عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ بْنِ سَلُولَ بثلث الجيش (ثلاثمائة منافق)، زاعماً الغضب لأن النبي ترك رأيه وأخذ برأي الشباب!**

**فتبعه الصحابي الجليل عبد الله بن حرام (والد جابر بن عبد الله) يناديهم: "أذكركم الله في نبيكم وقومكم!"، فقالوا بنفاق: "لو نعلم أنكم تقاتلون لاتبعناكم ولكن لا نرى أنه يكون قتال!".**

**فبقي النبي صلى الله عليه وسلم بـ سَبْعِمِائَةِ مُقَاتِلٍ فقط في مواجهة ثلاثة آلاف!**

**حبس طارق أنفاسه وقال:**

**— سبعمائة في مواجهة ثلاثة آلاف؟! فكيف رتب النبي صلى الله عليه وسلم خطته العسكرية الميدانية لتغطية هذا الفارق العددي الهائل؟**

**أجاب الأب بنبرة تبرز العبقرية العسكرية النبوية:**

**— استند النبي صلى الله عليه وسلم بظهره إلى جبل أُحُدٍ، فحمى ظهره وررتب صفوف جيشه لمواجهة المشركين. ولكن بقيت ثغرة خطيرة واحدة: شِعب في جبل صغير يُعرف بـ "جَبَلِ عَيْنَيْنِ" (وهو ما يُعرف اليوم بـ جَبَلِ الرُّمَاةِ)، كان يمكن لفرسان المشركين بقيادة خالد بن الوليد أن يلتفوا منه خلف ظهور المسلمين.**

**فوضع النبي صلى الله عليه وسلم على هذا الجبل خَمْسِينَ رَامِيًا من أرباب القسيّ، وأمّر عليهم الصحابي الجليل عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جُبَيْرٍ رضي الله عنه.**

**وأصدر إليهم أوامر عسكرية صارمة، مؤكدة، لا تحتمل التأويل ولا الاجتهاد!**

**قال لهم في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن البراء بن عازب:**

*"إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا القَوْمَ وَوَطِئْنَاهُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ!"*.

**وفي رواية أحمد:** *"احْمُوا ظُهُورَنَا، فَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نُقْتَلُ فَلَا تَنْصُرُونَا، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا قَدْ غَنِمْنَا فَلَا تَشْرَكُونَا!"*.

**سأل طارق بتركيز:**

**— أوامر حازمة جداً! "لا تبرحوا مكانكم ولو رأيتم الطير تخطفنا". وكيف بدأت المعركة في جولتها الأولى؟**

**أجاب الأب والابتسامة تعلو وجهه:**

**— بدأت المعركة، وكانت الجولة الأولى نصراً مظفراً مؤزراً للمسلمين!**

**قبض النبي صلى الله عليه وسلم على سيفه الشريف وقال:** *"مَنْ يَأْخُذُ هَذَا السَّيْفَ بِحَقِّهِ؟"*

**فقام رجال يطلبونه، فامنعهم، حتى قام البطل أَبُو دُجَانَةَ (سِماك بن خَرَشَة) رضي الله عنه وقال: "وما حقه يا رسول الله؟" قال:** *"أَنْ تَضْرِبَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ حَتَّى يَنْحَنِيَ!"* **، قال: "أنا آخذه بحقه يا رسول الله!".**

فأخذه أبو دجانة، وأخرج عصابة حمراء كانت تُسمى "عصابة الموت"، فِعَصَبَ بها رأسه، وجعل يتبختر ويمشي بين الصفين بكبرياء.

فنزل فيه القول النبوي الخالد: *"إِنَّهَا لَمِشْيَةٌ يُبْغِضُهَا اللَّهُ إِلَّا فِي هَذَا المَوْطِنِ!"*.

وانطلق أبو دجانة يهد الصفوف بسيف النبي، وانطلق حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ كالعاصفة يقطع رؤوس المشركين، وبارز أبطالهم وقتل حملة لوائهم جميعاً من بني عبد الدار (تسعة أو عشرة من حملة اللواء أبادهم حمزة وعلي وأبو دجانة).

وخلال ساعات يسيرة، انكسر جيش المشركين وولوا أدبارهم هاربين، وولّت نساؤهم يصعدن في الجبل، وبدأ المسلمون يجمعون الغنائم!

هتف طارق بفرح:

— الحمد لله! النصر حليف المسلمين! أين وقع التحول العكسي إذن يا أبي؟

تغيرت نبرة الأب ونزل عليها الأسى والخشوع، وقال:

— وقع التحول حين غفلت العين عن الأوامر النبوية الصارمة!

لما رأى أغلب الرماة فوق الجبل المشركين ينكصون والمسلمين يجمعون الغنائم، قالوا: "الغنائم! الغنائم! ظهر أصحابكم، فما تنتظرون؟!".

فوقف أميرهم عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ رضي الله عنه يحاول تثبيتهم وصاح فيهم: "أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! ألم يقل لا تبرحوا مكانكم؟!".

فقالوا باجتهاد خاطئ: "والله إنما أراد ذلك أثناء الحرب، وقد انتهت الحرب وهُزم العدو!".

فنزل أربعون رامياً من فوق الجبل لجمع الغنائم، ولم يبقَ مع عبد الله بن جبير إلا أقل من عشرة رماة!

سأل طارق بوجل وقلق:

— نزل أربعون رامياً وتركوا الجبل مكشوفاً؟! ماذا صنع خالد بن الوليد قائد فرسان المشركين؟

— كان خالد بن الوليد يرقب الجبل كالصقر. فلما رأى خلو الجبل من الرماة، كرّ بفرسانه فوراً من خلف الجبل، وقضى على عبد الله بن جبير

والنفر القليل الذين ثبتوا معه واستشهدوا جميعاً، ثم انقض خالد بفرسانه من ظهر المسلمين وهم ينتهبون الغنائم!

وفُوجئ المسلمون بالخيول تطوقهم من الخلف، وصاح المشركون، ورجعت فلولهم الفارة من الأمام، وأصبح المسلمون محاصرين بين فكي كبّاش!

وقُتل حامل لواء المسلمين مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ رضي الله عنه (وكان يشبه النبي صلى الله عليه وسلم في خَلقِه)، فصرخ الصارخ في المعركة وشاع الخبر الفاجع: *"أَلَا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ!"*.

حبس طارق أنفاسه، ودمعت عيناه وقال:

— "محمد قد قتل"؟! يا للهول! كيف وقع هذا الخبر على الصحابة في وسط الفوضى والقتال؟

أجاب الأب بصوت متهدج:

— أحدث الخبر زلزالاً نفسياً مروعاً!

بعضهم ألقى السلاح وقعد يبكي قائلاً: "ما نصنع بالحياة بعده؟!".

ومر بهم الصحابي الجليل أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ رضي الله عنه (عم أنس بن مالك)، فرآهم القوا أسلحتهم، فقال: "ما ينتظركم؟" قالوا: قُتل رسول الله!

فقال بكلمة تصنع الإيمان الخالد: *"فَمَا تَصْنَعُونَ بِالحَيَاةِ بَعْدَهُ؟! قُومُوا فَمُوتُوا عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ!"*.

ثم تقدم نحو جحافل المشركين وهو يقول: "اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (يعني أصحابه)، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء (يعني المشركين)!".

ثم غاص في صفوف العدو يقاتل بشراسة حتى قُتل. ولم تُعرف جثته بعد المعركة من كثرة ما فيه من الضربات (بضع وثمانون بين ضربة بسيف وطعنة برمح ورشقة بسهم)، حتى عرفته أخته بَبَنَانِهِ (أطراف أصابعه)!

وفيه نزل قول الله تعالى:

مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا [الأحزاب: 23].

سأل طارق، والدموع تنحدر على خديه:

**— أين كان النبي صلى الله عليه وسلم في هذه اللحظات الرهيبة؟ وكيف دافعت عنه الثلة الثابتة؟**

**أجاب الأب وعيناه تفيضان إجلالاً:**

**— كان النبي صلى الله عليه وسلم قد بقي في شِرْذِمَةٍ قَليلَةٍ (نحو تسعة من أصحابه: سبعة من الأنصار واثنان من المهاجرين هم طلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص).**

**فلما أطبق عليه فرسان المشركين يريدون قتله، قال النبي صلى الله عليه وسلم: *"مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الجَنَّةُ؟"***

**فتقدم الأنصار واحداً تلو الآخر يقاتلون حتى قُتل السبعة الأنصار جميعاً دفاعاً عنه!**

**وبقي النبي صلى الله عليه وسلم ومعه طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ وسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ.**

**وهنا أُوذِيَ النبي صلى الله عليه وسلم إيذاءً شديداً؛**

**رماه عتبة بن أبي وقاص بحجر فكسر رباعيته السفلى وشُجت شفته، وضربه ابن قَمِيئَةَ بالسيف على رأسه الشريف فكسر الخوذة (المِغْفَر)**

ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وَجْنَتِهِ (خدّه الشريف)، وسقط النبي صلى الله عليه وسلم في حفرة كان قد حفرها أبو عامر الفاسق، فجُرحت ركبتاه!

توقف الأب للحظة، وجرى الدمع في عينيه، ثم تابع:

— جاء أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ رضي الله عنه، فأخذ إحدى الحلقين بأسنانه فجذبها حتى سقطت وسقطت ثنيته (سنه)، ثم أخذ الحلقة الأخرى بأسنانه فجذبها فسقطت ثنيته الثانية، فصار هَتَمًا (أجمل الناس هتماً) في سبيل الله!

وأما طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ؛ فقد جعل جسده تُرْساً (درعاً) ودفاعاً يدفع به السهام والحِراب عن النبي صلى الله عليه وسلم، واتقى السهام بيده حتى شُلّت أصابعه، وضُرب بضعاً وسبعين ضربة!

حتى قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: *"مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى شَهِيدٍ يَمْشِي عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ!"*.

وأما سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ؛ فقد كان ينثل له النبي صلى الله عليه وسلم كنانته (سهامه) ويقول له: *"ارْمِ سَعْدُ! فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي!"* (ولم يجمع النبي أباه وأمه فداءً لأحد إلا لسعد يوم أحد!).

وكان أَبُو طَلْحَةَ الأَنْصَارِيُّ يجثو بين يدي النبي يترس عليه بقوسه، وكان إذا رفع النبي رأسه ليرى القوم، قال له أبو طلحة خوفاً عليه: "يا نبي الله! بأبي أنت وأمي، لا تشرف (لا ترفع رأسك) يصبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك!".

هتف طارق وهو يرتجف تأثراً:

— فداء بالأنفس والأرواح! نِعْمَ الأصحاب ونِعْمَ الفداء! وكيف استشهد عمّه أسد الله حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه في هذا اليوم؟

أخفض الأب رأسه وقال بحزن ناطق:

— استُشهد حمزة رضي الله عنه غدراً ومكيدة!

كان وَحْشِيُّ بْنُ حَرْبٍ عبداً للجبير بن مطعم، وكانت هند بنت عتبة قد وعدته بالحرية والأموال إن هو قتل حمزة بطل بدر (الذي قتل أباها وعمها).

وكان وحشي حبشياً يحسن رمي الحربة (الحربة القصيرة).

يقول وحشي فيما بعد حين أسلم: "كنت أكمن لحمزة تحت صخرة، وهو يهد الناس بسيفه هداً، لا يمر بشيء إلا جذه. فتهززت بحربتي حتى إذا

رضيت منها دفعاتها، فوقعت في ثنته (أسفل بطنه) حتى خرجت من بين رجليه، فسقط مقتولاً!".

ثم جاءت هند بنت عتبة فبقرت بطن حمزة واستخرجت كبده ولاكته فلم تستطع سيغته فلفظته، ومثلت بجثته الزكية!

فلما وقف النبي صلى الله عليه وسلم على جثمان عمه حمزة بعد المعركة ورآه ممثلاً به، بكى بكاءً شديداً لم يُسمع بمثله قط، وقال بصوت حزين:

*"لَنْ أُصَابَ بِمِثْلِكَ أَبَدًا! مَا وَقَفْتُ مَوْقِفًا قَطُّ أَغْيَظَ إِلَيَّ مِنْ هَذَا!".*

سأل طارق:

— وكيف انجلت المعركة واستقر الأمر بالنبي وأصحابه فوق الجبل؟

أجاب الأب:

— استطاع كعب بن مالك أن يتعرف على عينَي النبي صلى الله عليه وسلم من تحت المغفر، فصرخ بأعلى صوته: "يا معشر المسلمين! أبشروا! هذا رسول الله حي لم يُقتل!".

فالتف المسلمون حوله، ولأَموا جراحه، وصعدوا به إلى شِعب جبل أحد المحصن.

وعجز فرسان المشركين عن صعود الجبل.

فنادى أبو سفيان من أسفل الجبل: "أفي القوم محمد؟"

فقال النبي: *"لَا تُجِيبُوهُ"*.

قال أبو سفيان: "أفي القوم ابن أبي قحافة (أبو بكر)؟" قال النبي: *"لَا تُجِيبُوهُ"*.

قال: "أفي القوم ابن الخطاب (عمر)؟" فلم يجيبوه.

فقال أبو سفيان بكبرياء: "أما هؤلاء فقد كُفيتموهم!".

فلم يملك عمر بن الخطاب نفسه أن صاح به: "كذبت يا عدو الله! إن الذين سميت لأحياء، وقد أبقى الله لك ما يسوؤك!".

فقال أبو سفيان: "أُعْلُ هُبَلْ! أُعْلُ هُبَلْ!" (يمجد صنمه).

فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: *"أَلَا تُجِيبُوهُ؟"*

**قالوا: ما نقول يا رسول الله؟**

**قال: *"قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ!"* .**

**قال أبو سفيان: "لَنَا العُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ!".**

**قال النبي: *"قُولُوا: اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ!"* .**

**ثم قال أبو سفيان: "يوم بيوم بدر، والحرب سجال!".**

**وانصرف المشركون راجعين نحو مكة، بعد أن استشهد من المسلمين سَبْعُونَ شَهِيدًا (أغلبهم من الأنصار).**

**صمت طارق، ومسح دموعه التي بللت خديه، وسأل بصوت خافت:**

**— سبعون شهيداً، ونبي مكلوم ومجروح! كيف عالج القرآن الكريم هذه المحنة النفسية في قلوب المؤمنين يا أبي؟**

**أشرق وجه الأب بضياء الآيات وقال:**

**— نزلت ستون آية في سورة آل عمران تعقب على غزوة أحد، تشرح أسباب الهزيمة، وتطبب الجراح، وتربي الأمة على السنن الكونية:**

1. بينت أن المخالفة والأثرة هي سبب النكسة:

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ [آل عمران: 152].

2. ورفعت الروح المعنوية وقضت على اليأس:

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ [آل عمران: 139-140].

3. وبينت سنة الاصطفاء بالشهادة:

وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ [آل عمران: 140].

ولم يكتفِ النبي صلى الله عليه وسلم بذلك يا طارق؛ بل في صبيحة اليوم الثاني مباشرة (يوم الأحد)، وأجسامهم مضرجة بالجراح، أمر بالخروج لمطاردة جيش قريش في غزوة "حَمْرَاءِ الأَسَدِ"؛ كي لا تظن قريش أن المسلمين انهزموا أو ضعفوا!

فخرجوا خلف قريش وهم بجلهم جرحى، حتى خافت قريش وواصلت سيرها إلى مكة!

أغلق الأب المجلد برفق، وقال وهو ينظر إلى طارق بابتسامة حازمة:

— هذه هي مدرسة أحد يا بني؛ عبرة في طاعة القيادة، ودرس في رد النكسات إلى انتصارات تربوية. وبها استعادت الدولة هيبتها، لتستعد لمواجهة أكبر حشد وتحالف في تاريخ الجزيرة العربية... في "غَزْوَةِ الخَنْدَقِ وَالأَحْزَابِ"!

**وهذا ما سنفتح صفحاته المذهلة في الفصل القادم غداً إن شاء الله!**

# الفصل السادس عشر

جلس "طارق" في المساء قبالة والده في زاوية المكتبة الهادئة، وأوراقه منتظمة أمامه، وعيناه تشعان بشغف باليغ. وضع والده أمامه مجلداً عتيقاً من مجلدات السيرة النبوية الصحيحة، فنظر إليه طارق وقال بنبرة تملؤها الجدية والترقب:

— أبي، بعد أن رأينا كيف استعادت الدولة الإسلامية هيبتها في حمراء الأسد وتعلم المسلمون درس الطاعة البليغ في أحد، ما هي الأزمة الكبرى التالية التي هددت وجود المدينة المنورة بكاملها؟ كيف تجمعت القبائل العربية وحلفاؤها في السنة الخامسة للهجرة لحصار المسلمين واستئصال شأفتهم؟

ابتسم الأب ابتسامة ملؤها الوقار والتقدير، وأخذ نفساً عميقاً ثم قال بصوت دافئ ومفصل:

— يا بني، إن المعركة التالية لم تكن مجرد مواجهة مع قبيلة واحدة كقريش، بل كانت تَحَالُفًا عَسْكَرِيًّا شَامِلًا هو الأضخم في تاريخ الجزيرة العربية حتى ذلك الحين! إنها "غَزْوَةُ الخَنْدَقِ"، وتُسمى أيضاً "غَزْوَةَ الأَحْزَابِ"، والتي وقعت في شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة.

سأل طارق بتركيز شديد:

— ومن كان المحرك الأساسي لهذا التحالف الضخم يا أبي؟

أجاب الأب موثقاً من صحيح السيرة:

— كان المحرك الأساسي هم سادات يهود بَنِي النَّضِيرِ (الذين أجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة بعد نقضهم العهد ومحاولة اغتياله). خرج وفد من كبرائهم، وعلى رأسهم حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ، وسَلَامُ بْنُ أَبِي الحُقَيْقِ، وذهبوا إلى مكة يحرضون قريشاً على غزو المدينة، وقالوا لقريش كلمة كفرية خطيرة سجلها القرآن الكريم: "دينكم خير من دين محمد، وأنتم أهدى منهم سبيلاً!".

وفي ذلك نزل قول الله تعالى في سورة النساء يكشف زيغهم:

**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا [النساء: 51-52].**

**ثم ذهب وفد اليهود إلى قبيلة غَطَفَانَ وأعراب نجد، ووعدوهم بنصف ثمار خيبر سنوياً إن هم شاركوا في الحرب. فاجتمعت الجيوش من كل حدب وصوب؛ قريش بقيادة أَبِي سُفْيَانَ، وغطفان بقيادة عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ، وبنو سليم، وبنو أسد، فبلغ عدد جيش الأحزاب عَشَرَةَ آلَافِ مُقَاتِلٍ!**

**وهو جيش يزيد عدده على عدد سكان المدينة قاطبة من الرجال والنساء والأطفال في ذلك الوقت!**

**هتف طارق مأخوذاً بالرقم:**

**— عشرة آلاف مقاتل؟! والمسلمون كم كان عددهم في مواجهة هذه الجحافل؟**

**— لم يزد جيش المسلمين عن ثَلَاثَةِ آلَافِ مُقَاتِلٍ فقط يا بني!**

ولما بلغت الأنباء الاستخباراتية النبيَّ صلى الله عليه وسلم بقدوم هذا الجيش الجرار، عقد فوراً مجلس شورى عسكرياً مع أصحابه. وهنا برزت العبقرية العسكرية والهندسية للصحابي الجليل سَلْمَانَ الفَارِسِيّ رضي الله عنه.

قال سلمان للنبي صلى الله عليه وسلم: "يا رسول الله، إنا كنا بأرض فارس إذا حُوصرنا خَنْدَقْنَا علينا!".

استحسن النبي صلى الله عليه وسلم هذا المفهوم الدفاعي الجديد على العرب تماماً، وأمر فوراً بحفر خندق عظيم في الجهة الشمالية للمدينة (وهي الجهة الوحيدة المكشوفة التي يمكن للخيول والجيوش الاقتحام منها، بينما تحيط بالمدينة من الجهات الأخرى الحرار البركانية والنخيل الملتفة البيوت المحصنة).

سأل طارق بشغف:

— وكيف جرت عملية حفر الخندق؟ وهل شارك النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في هذا العمل الشاق؟

أجاب الأب بنبرة يملؤها الإجلال والمحبة:

**— روى الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما مشاهد عظيمة لا تُنسى لملحمة الحفر!**

**قسّم النبي صلى الله عليه وسلم الخندق بين أصحابه؛ لكل عشرة أبيات أربعون ذراعاً. وكان الطول الإجمالي للخندق يصل إلى مئات الأمتار وعرضه وعمقه يمنعان الفرسان من القفز فوقه.**

**ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يوجه الأوامر من برج عاجي، بل كان يحفر بيده الشريفة مع المسلمين، ينقل التراب في زنبتها حتى غبر التراب جلدة بطنه الشريف!**

**وكان العمل يتم في ظروف مناخية ونفسية شديدة القسوة؛ برد قارص، وجوع كافر.**

**روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يرتجزون وينقلون التراب في غداة باردة، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع، قال معلماً إياهم الصبر واليقين:**

***"اللَّهُمَّ إِنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهِ * فَاغْفِرِ لِلأَنْصَارِ وَالمُهَاجِرَهِ"***

**فيردون عليه بصوت موحد يزلزل الصخر:**

***"نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا * عَلَى الإِسْلَامِ مَا بَقِينَا أَبَدَا"***

**روى الصحابة أنهم ربطوا على بطونهم حشوة حجرٍ واحد من شدة الجوع، فكشف النبي صلى الله عليه وسلم عن بطنه الشريف فإذا هو يربط حَجَرَيْنِ من شدة الجوع!**

**تنهد طارق والدموع في عينيه وقال:**

**— يربط حجرين على بطنه الشريفة ويحفر التراب؟! يا لرحمة الله وحلمه على أمه! وهل وقعت معجزات نبوية خلال الحفر يا أبي؟**

**— نعم يا بني! ظهرت معجزات إلهية باهرة ثبتت قلوب المؤمنين:**

1. **مُعْجِزَةُ الصَّخْرَةِ العَتِيقَةِ: روى البخاري أن صخرة شديدة الصلابة (كُدْيَة) استعصت على معاول الصحابة، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم وأخذ المِعْوَل، وضربها ثلاث ضربات؛ مع الضربة**

الأولى لمعت برقة فكبر وقال: *"اللَّهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الحُمْرَ الآنَ!"*، ثم ضرب الثانية فكبر وقال: *"اللَّهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قَصْرَ المَدَائِنِ الأَبْيَضَ الآنَ!"*، ثم ضرب الثالثة فكبر وبشر بفتوح اليمن! عادت الصخرة هباءً ناعماً. بشرهم بفتح إمبراطوريات العالم وهم محاصرون يربطون الحجارة على بطونهم!

2. مُعْجِزَةُ طَعَامِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: رأى جابرُ بن عبد الله الجوعَ في وجه النبي، فاستأذنه وذهب إلى بيته فذبح عَنَاقاً (سخلة صغيرة) وطحنت زوجته صاعاً من شعير، وجاء يهمس للنبي: "يا رسول الله، طُعَيْمٌ لي، فقم أنت ورجل أو رجلان معي!". فصرخ النبي في أهل الخندق جميعاً: *"يَا أَهْلَ الخَنْدَقِ، قُومُوا! فَإِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُورًا (صنيعاً)"* ! فجاء الجيش كله (ألف رجل)، فبارك النبي في البرمة والعجين، فأكل الألف رجل حتى شبعوا جميعاً وشبّت القِدْرُ كما هي، وبقي العجين كما هو!

هتف طارق مأخوذاً بالإعجاز:

— سبحان الله! بركة النبوة تفيض على ألف رجل من صاع شعير وعناق! وماذا حدث حين وصلت جحافل الأحزاب العشرة آلاف إلى مشارف المدينة؟

أجاب الأب بصوت يصور ذهول المشركين:

— وصلت جيوش الأحزاب، وفوجئوا بوجود الخندق الذي لم يعتادوا عليه في حرب قط! وقفوا على شفيره مبهوتين حائرين، يصرخون: "إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تعرفها!".

فضغطوا بحصار مطبق على المدينة استمر قرابة شهر كامل، يتراشقون بالنبل عبر الخندق دون أن يستطيعوا العبور.

حاول بعض فرسان قريش الشجعان (كعمرو بن عبد ود العامري، وعكرمة بن أبي جهل) اقتحام الخندق من مكان ضيق، فتوثب لهم أسد الميدان عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه، فبارز عَمْرَو بْنَ عَبْدِ وُدٍّ (وكان يعد بألف فارس) وقتله عليٌّ بضربة حاسمة، ففر بقية الفرسان رعباً!

سأل طارق بتركيز أعمق:

— وحصار شهر كامل دون طعام وفي البرد القارس.. ألم تتضاعف المحنة بخيانة من الداخل يا أبي؟

أخفض الأب رأسه ونزل عليه الحزن الشديد وقال:

— هنا وقعت الكارثة والأزمة الكبرى يا بني!

ذهب حيي بن أخطب اليهودي إلى بَنِي قُرَيْظَةَ (يهود المدينة المقيمين في أطرافها الجنوبية، والذين كان بينهم وبين النبي عهد حماية دفاعي).

ودخل على سيدهم كَعْبِ بْنِ أَسَدٍ القُرَظِيِّ، ولم يزل به يغريه ويمنيه حتى نقض كعب بن أسد العهد، ومزق الصحيفة التي كانت بينه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم!

فأصبح المسلمون بين فكي كماشة مروعة: الأحزاب من الشمال خلف الخندق، وبنو قريظة الغادرون من الجنوب خلف ظهور نسائهم وأطفالهم في داخل المدينة!

وهنا بلغت القلوب الحناجر، وأظهر المنافقون نفاقهم، وسجل القرآن الكريم هذه اللحظة الرهيبة في سورة الأحزاب:

إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا [الأحزاب: 10-11].

**قال المنافقون بوقاحة: "كان محمد يعدنا أن نأكل كنز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن ذهب إلى الخلاء!".**

**سأل طارق بكل جوارحه:**

**— قمة الخوف والأزمة! فكيف فرج الله هذه الكربة الخانقة عن النبي وأصحابه؟**

**أجاب الأب بنبرة تفيض بالبشرى والنصر:**

**— فرجها الله بتدبير إلهي عجيب جمع بين الذَّكَاءِ البَشَرِيِّ وَالجُنْدِ الإِلَهِيِّ:**

1. **دَهَاءُ نُعَيْمِ بْنِ مَسْعُودٍ: جاء رجل من غطفان يُدعى نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: "يا رسول الله، إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت!". فقال له النبي صلى الله عليه وسلم بعبقريته: *"إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّلْ عَنَّا إِنِ اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الحَرْبَ خُدْعَةٌ!"*.**

**فذهب نعيم بدهاء إلى بني قريظة وقال لهم: "قريش وغطفان ليسوا كأنتم، إن رأوا نهزة أخذوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وتركوا محمد**

يستأصلكم! فلا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رُهناء (رهائن من أشرافهم)".

ثم ذهب إلى قريش وغطفان وقال لهم: "إن بني قريظة قد ندموا على نقض العهد، واتفقوا مع محمد أن يأخذوا منكم رهائن من أشرافكم ويسلموهم لمحمد ليضرب أعناقهم ليصالحوه!".

فلما طلبت قريش من بني قريظة الخروج للقتال، قالت بنو قريظة: لن نقتاتل معكم حتى تعطونا رهائن! فقال أبو سفيان: "صدقنا نعيم!". فدب الشك والتلاوم وانهارت الثقة تماماً بين الأحزاب وبني قريظة!

2. جُنْدُ الرِّيحِ وَالمَلَائِكَةِ: أرسل الله على جيش الأحزاب في ليلة باردة مظلمة رِيحًا صَرْصَرًا عَاتِيَةً شديدة البرودة! تزلزلت أقدامهم، وقُلعت خيامهم، وأُكفئت قدورهم، وأُطفئت نيرانهم، ورُمي الرعب في قلوبهم! ولما أرسل النبيُّ صلى الله عليه وسلم الصحابي الجليل حُذَيْفَةَ بْنَ اليَمَانِ ليتجسس أخبارهم، رأى أبا سفيان يقوم مذعوراً ويصرخ في قومه: "يا معشر قريش! إنكم والله لستم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، ولقينا من هذه الريح ما ترى! فارتحلوا فإني مرتحل!".

**وأنزل الله آيات النصر في سورة الأحزاب:**

**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا [الأحزاب: 9].**

**أشرق وجه طارق بابتسامة النصر المظفر وقال:**

**— الله أكبر! انهزم الأحزاب وانقشع الكابوس دون قتال مباشر!**

**— نعم يا بني! ولما رجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ووضع سلاحه واغتسل، جاءه جبريل عليه السلام وقال له: "أقد وضعت السلاح؟ والله ما وضعت الملائكة السلاح! نهوضاً إلى بني قريظة!".**

**فنادى النبي صلى الله عليه وسلم أمراً جازماً:**

***"لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ!".***

**وحوصر بنو قريظة في حصونهم خمس وعشرين ليلة حتى نزلوا على حكم الصحابي الجليل سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ (سيد الأوس)، فحكم فيهم بما وافق**

**حكم الله من فوق سبع سماوات؛ بقتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم لجريمة الخيانة العظمى في وقت الحرب!**

**وبعد انقضاء الغزوة، أطلق النبي صلى الله عليه وسلم عبارته الاستراتيجية الخالدة التي أعلنت التحول من الدفاع إلى الهجوم:**

***"الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ!"***

**أغلق الأب المجلد برفق، ونظر إلى طارق وقال:**

**— وهكذا يا طارق، طُويت صفحة الدفاع الخائف، وبدأت مرحلة التمكين السياسي والعسكري الكبرى، التي مهدت لأعظم فتح استراتيجي في التاريخ... "صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ"!**

**وهذا ما سنفتح صفحاته المذهلة في الفصل القادم غداً إن شاء الله!**

**سألت أبي ..... خالد بن ياسين**

# الفصل السابع عشر

كان المساء يلفّ المنزل بسكونه المعتاد، و"طارق" يجلس في مكتبة أبيه، يراجع دفتره الذي امتلأت صفحاته بغبار المعارك، وأصوات السيوف، وأهازيج النصر. دخل الأب، فاعتدل طارق في جلسته وبادره قائلاً:

— أبي، لقد ختمنا الليلة الماضية غزوة الأحزاب بعبارة النبي صلى الله عليه وسلم الاستراتيجية: "الآن نغزوهم ولا يغزوننا". هل يعني هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم جهز جيشاً لغزو مكة فوراً والثأر من قريش؟

ابتسم الأب وأخذ مقعده، ثم قال بصوت يفيض بالحكمة:

— يا بني، إن القيادة النبوية لا تحركها انفعالات الثأر، بل يوجهها الوحي وتضبطها الحكمة. لم يخرج النبي صلى الله عليه وسلم لقتال قريش، بل خرج لـ السَّلَامِ وَتَعْظِيمِ بَيْتِ اللَّهِ.

في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة، رأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه رُؤيا حق؛ رأى أنه وأصحابه قد دخلوا المسجد الحرام آمنين، محلقين رؤوسهم ومقصرين. ورؤيا الأنبياء وحي، فاستبشر الصحابة وفرحوا فرحاً عظيماً بعد ست سنوات من الحرمان من رؤية الكعبة ومسقط رأس المهاجرين.

سأل طارق بلهفة:

— إذن، خرجوا معتمرين لا مقاتلين! كم كان عددهم؟ وماذا أخذوا معهم؟

— نعم، أعلن النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة أنه خارج للعمرة، فخرج معه أَلْفٌ وَأَرْبَعُمِائَةٍ من الصحابة. ولم يأخذوا معهم سلاح حرب (كالدروع والرماح)، بل أخذوا "سِلَاحَ المُسَافِرِ" فقط (السيوف في القُرُبِ والأغماد). وساقوا معهم "الهَدْيَ" (الأنعام التي تُذبح تقرباً لله في الحرم) لِيُعلموا الناس أنهم ما جاؤوا لحرب، بل لتعظيم البيت. وأحرموا بالعمرة من "ذِي الحُلَيْفَةِ".

— وكيف تلقت قريش هذا الخبر؟ هل صدقوا نواياه السلمية؟

أجاب الأب بنبرة تعكس تعنت الجاهلية:

— أبَتْ كبرياءُ قريش أن يدخل محمد مكة، ولو كان معتمراً! قالوا: "والله لا تتحدث العرب أنه دخل علينا عنوة!".

فجهزوا جيشاً، وأرسلوا مائتي فارس بقيادة خَالِدِ بْنِ الوَلِيدِ (وكان مشركاً حينها) ليعسكروا في "كُرَاعِ الغَمِيمِ" لصد المسلمين ومنعهم من التقدم.

ولما علم النبي صلى الله عليه وسلم بوجود فرسان خالد في الطريق الرئيسي، أظهر عبقرية في المناورة لتجنب سفك الدماء. قال لأصحابه: *"مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ بِنَا عَلَى طَرِيقٍ غَيْرِ طَرِيقِهِمْ الَّتِي هُمْ بِهَا؟"*

فتقدم رجل من "أَسْلَمَ"، وسلك بهم طريقاً وعراً بين الشِّعاب حتى جاوزوا فرسان خالد، ونزلوا في منطقة قريبة من مكة تُسمى "الحُدَيْبِيَةَ".

وهنا يا طارق، وقع حدث عظيم للناقة "القَصْوَاءِ".

انتبه طارق وسأل:

— القصواء؟ ناقة النبي صلى الله عليه وسلم؟ ماذا حدث لها؟

— لما وصلت القصواء إلى ثنية الحديبية، بركت ورفضت التقدم خطوة واحدة نحو مكة!

فزجرها الصحابة لتنهض، فأبت. فقالوا: "خَلَأَتِ القَصْوَاءُ! خَلَأَتِ القَصْوَاءُ!" (أي حرنت وعصت كما يفعل الجمل).

فأجابهم النبي صلى الله عليه وسلم بلسان الموصول بالسماء:

*"مَا خَلَأَتِ القَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ!".*

هتف طارق مبهوراً لترابط الأحداث:

— حابس الفيل! يقصد الله عز وجل الذي منع فيل أبرهة من دخول مكة؟

— نعم يا بني! ثم أطلق النبي صلى الله عليه وسلم قاعدة دستورية في السلم والحرب، قال:

*"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونَنِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا".*

بمعنى: أي شروط تضعها قريش لمنع القتال وتعظيم مكة، سأوافق عليها حقناً للدماء.

نزل المسلمون بالحديبية، وكان بها بئر قليل الماء، فنزفوه وشربوه حتى جفّ ولم تبقَ فيه قطرة. فاشتكى الناس العطش لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

هنا تجلت إحدى معجزاته الباهرة؛ فانتزع سهماً من كنانته وأعطاه لأحد أصحابه وأمره أن يغرزه في قاع البئر. فوالله ما هو إلا أن غرزه، حتى جاش البئر بالماء العذب الفرات، فشرب الألف والأربعمائة، وسقوا دوابهم، وملؤوا قربهم!

سأل طارق بتركيز:

— إذن استقروا في الحديبية. كيف بدأت المفاوضات مع قريش؟

— أرسلت قريش عدة سفراء لاختبار نوايا المسلمين. كان أذكاهم وأعظمهم شأناً عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ.

جاء عروة وجلس يكلم النبي صلى الله عليه وسلم، وأثناء حديثه كان يمد يده ليأخذ بلحية النبي (وهي عادة عند العرب في الحوار). وكان المُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ (ابن أخي عروة) واقفاً خلف النبي، فكلما مد عروة يده، قرعه المغيرة بنعل السيف وقال: "أَخِّر يدك عن لحية رسول الله قبل أن لا تصل إليك!".

لكن عروة لم يكن يراقب المفاوضات فقط، بل كان يراقب مشهداً زلزل كيانه! راقب كيف يتعامل الصحابة مع نبيهم.

فرجع إلى قريش مذهولاً، وألقى فيهم هذه الخطبة التاريخية:

*"أَيْ قَوْمِ! وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى المُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ، وَكِسْرَى، وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللَّهِ إِنْ (مَا) رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا! وَاللَّهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ! وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ! وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ، فَاقْبَلُوهَا".*

تنهد طارق وقال:

— يا لروعة هذا الوصف! شهادة من مشرك تُلخص الحب المطلق. وماذا قرر النبي صلى الله عليه وسلم ليوصل رسالته بوضوح إلى قريش؟

— أراد أن يرسل سفيراً من جانبه يوضح لهم هدفه السلمي. فاختار عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رضي الله عنه لمكانته ومناعته في بني أمية بمكة.

دخل عثمان مكة، وأبلغهم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، وقالوا له: "إن شئت أن تطوف بالبيت فطف"، فرفض عثمان بشدة وقال: *"مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ حَتَّى يَطُوفَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم"*.

وهنا يا طارق، احتبست قريش عثمان عندها، فتأخر عن العودة. وسرت شائعة كالنار في الهشيم في معسكر الحديبية: "قُتِلَ عُثْمَانُ!".

تغيرت ملامح الأب وأصبحت صارمة، وقال:

— هنا لم يعد للسلام مكان! المساس بالسفير يعني إعلان الحرب.

قام النبي صلى الله عليه وسلم تحت شجرة السَّمُرَةِ في الحديبية، ودعا الناس لبيعة الموت، أو بيعة عدم الفرار. فتهارع الألف والأربعمائة صحابي، فبايعوه فرداً فرداً، ووضعوا أيديهم فوق يده الشريفة على ألا يفروا أبداً.

وهذه هي "بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ" العظيمة، التي خلدها الله في سورة الفتح برضاه الأبدي عنهم:

لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا [الفتح: 18].

**ومن عظيم وفاء النبي صلى الله عليه وسلم، أنه بعد أن بايع الناس جميعاً، ضرب بيده اليمنى على يده اليسرى وقال: *"اللَّهُمَّ هَذِهِ عَنْ عُثْمَانَ، فَإِنَّهُ فِي حَاجَةِ اللَّهِ وَحَاجَةِ رَسُولِهِ!"*. فكانت يد النبي لعثمان خيراً من أيدي الصحابة لأنفسهم.**

**فلما سمعت قريش بهذه البيعة المرعبة، أدركوا أن محمداً وأصحابه سيقاتلون حتى الفناء، فأطلقوا عثمان، وسارعوا بإرسال سفير جديد لعقد الصلح، وهو سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو.**

**— سهيل بن عمرو! ماذا قال النبي صلى الله عليه وسلم حين رآه؟**

**— حين رآه النبي مقبلاً، تفاءل باسمه وقال: *"لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ، جَاءَ سُهَيْلٌ، قَدْ أَرَادَ القَوْمُ الصُّلْحَ"*.**

**جلس سهيل مع النبي صلى الله عليه وسلم، وبدأت كتابة البنود. وهنا استدعى النبي صلى الله عليه وسلم عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه ليكتب الوثيقة، وبدأ المشهد النفسي الأصعب على الصحابة!**

**انتبه طارق متسائلاً:**

**— أصعب؟ لماذا يا أبي؟ أليس صلحاً يحقن الدماء؟**

**— بلى، ولكنه تضمن تنازلات شكلية وشروطاً مجحفة ظاهرياً كادت تفطر قلوب الصحابة! استمع لما دار في كتابة الوثيقة:**

**قال النبي لعلي: *"اكْتُبْ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"*.**

**فقال سهيل معترضاً: "أما الرحمن، فوالله ما أدري ما هو! ولكن اكتب: باسمك اللهم كما كنت تكتب".**

**فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم!**

**فقال النبي (الذي ينظر للجوهر لا للشكل): *"اكْتُبْ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ"*.**

**ثم قال: *"اكْتُبْ: هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ"*.**

**فانتفض سهيل وقال: "والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك! ولكن اكتب: محمد بن عبد الله!".**

**فأمر النبي علياً أن يمحوها. لكن علياً رضي الله عنه، من شدة أدبه وحبه، توقف وقال: "والله لا أمحوك أبداً!".**

فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم الصحيفة (وهو لا يقرأ ولا يكتب)، فقال لعلي: *"أَرِنِي إِيَّاهَا (أين هي؟)"*، فدله عليها، فمحاها النبي صلى الله عليه وسلم بيده الشريفة، وقال لعلي: *"اكْتُبْ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ"*.

صُدم طارق وقال:

— يمحو صفة الرسالة ليمضي الصلح؟! يا لرجاحة العقل وحكمة القيادة! وماذا كانت شروط الصلح؟

— تم الاتفاق على أربعة شروط رئيسية:

1. إيقاف الحرب بين الطرفين عَشْرَ سِنِينَ.
2. أن يرجع المسلمون هذا العام فلا يعتمرون، ويعودون في العام القادم ليعتمروا ويقيموا بمكة ثلاثة أيام فقط.
3. (الشرط الأشد قسوة): من جاء إلى محمد من قريش مسلماً بغير إذن وليه (فاراً إليهم)، يَرُدُّهُ مُحَمَّدٌ إِلَيْهِمْ. ومن جاء قريشاً من المسلمين مرتداً، لَا يَرُدُّونَهُ إِلَى مُحَمَّدٍ!
4. من أحب أن يدخل في حلف محمد دخل فيه (فدخلت قبيلة خُزَاعَةَ)، ومن أحب أن يدخل في حلف قريش دخل فيه (فدخلت قبيلة بَنِي بَكْرٍ).

لم يكد طارق يستوعب الشرط الثالث حتى قاطع أباه بانفعال:

— يردون المسلم الذي يأتيهم، ولا تُرد قريش المرتد؟! كيف وافق النبي على هذا الشرط الظالم؟! وكيف تحمله الصحابة؟!

أخفض الأب صوته، وقال بأسى:

— هذا بالضبط ما اعتصر قلوب الصحابة ألماً وحسرة! وفي اللحظة التي كان يُكتب فيها هذا الشرط القاسي، حدث ما لم يكن في الحسبان.

ظهر شاب يرسف في قيوده (مقيداً بالسلاسل)، قد فرّ من سجون مكة وعذابها، يرمي بنفسه بين المسلمين. أتدري من هو؟ إنه أَبُو جَنْدَلٍ، ابنُ سهيل بن عمرو (مفاوض قريش)!

قام سهيل ولطم وجه ابنه، وأخذ بتلابيبه وقال: "يا محمد! هذا أول ما أقاضيك عليه، أن ترده إليّ!".

فقال النبي يرجوه: *"إِنَّا لَمْ نَقْضِ الكِتَابَ بَعْدُ (لم ننهِ التوقيع)"*.

قال سهيل بعناد: "فوالله إذاً لا أصالحك على شيء أبداً!".

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: *"فَأَجِزْهُ لِي (اعفُ عنه من أجلي)"*.

**قال سهيل: "ما أنا بمجيزه لك!".**

**فجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته في المسلمين: *"أَيْ مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ! أُرَدُّ إِلَى المُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا؟! أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ؟"* (وكان قد عُذب عذاباً شديداً في الله).**

**فاضت الدموع في عيون الصحابة، وكادت قلوبهم تنفجر غيظاً. ولكن النبي صلى الله عليه وسلم، القائد الذي يحترم العهود، نظر إلى أبي جندل وقال له بقلب يعتصر ألماً ولسان ينطق بالوحي:**

***"يَا أَبَا جَنْدَلٍ، اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ المُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا، إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ القَوْمِ صُلْحًا، وَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ عَهْدًا، وَإِنَّا لَا نَغْدِرُ بِهِمْ!".***

**صمت طارق طويلاً، كأنه يعيش المأساة، ثم قال:**

**— موقف يفتت الجبال! ألم يعترض أحد من كبار الصحابة على هذا التنازل؟ أين عمر بن الخطاب من كل هذا؟**

**ابتسم الأب ابتسامة فيها إكبار لعمر، وقال:**

**— عمر رضي الله عنه لم يحتمل! فار التنور في صدره، وذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال بعاطفة الإيمان المشتعلة:**

**"يا رسول الله، ألسنا على الحق وهم على الباطل؟"**

**قال: *"بَلَى"*.**

**قال: "أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟"**

**قال: *"بَلَى"*.**

**قال: *"فَعَلَامَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا؟ أَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟!"*.**

**فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم بجواب الحسم اليقيني:**

***"يَا ابْنَ الخَطَّابِ! إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي أَبَدًا!"*.**

**فلم يهدأ عمر، بل ذهب إلى أبي بكر الصديق، وقال له نفس الكلام: "يا أبا بكر، ألسنا على الحق... فعلام نعطي الدنية؟!".**

**فماذا كان جواب أبي بكر؟ لقد أجاب بنفس كلمات النبي حرفياً دون أن يسمعها! قال أبو بكر:**

***"أَيُّهَا الرَّجُلُ! إِنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ (تمسك بطاعته)، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ عَلَى الحَقِّ!"***. **(ولهذا ندم عمر لاحقاً وصام وتصدق ليعفر عنه ما صدر منه يومها من مراجعة).**

**— وبعد توقيع الصلح، هل تحللوا من إحرامهم يا أبي؟**

**تغيرت نبرة الأب لتنقل أزمة نفسية جديدة:**

**— هنا وقعت الأزمة الصامتة. أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بعد الصلح قائلاً: *"قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا"*. (أي تحللوا من العمرة دون أن نطوف).**

**فوالله يا طارق، لم يقم منهم رجل واحد! كررها ثلاث مرات، ولم يقم أحد! لم يعصوه تمرداً، حاشاهم، بل قعد بهم الحزن والذهول والصدمة. كانوا لا يزالون يأملون أن ينزل وحي ينسخ الصلح ويدخلهم مكة!**

دخل النبي صلى الله عليه وسلم خيمته، مهموماً مغموماً مما حدث من أصحابه. وكانت معه زوجته، أم المؤمنين العاقلة الحكيمة أُمُّ سَلَمَةَ رضي الله عنها.

فقال لها: *"هَلَكَ النَّاسُ! أَمَرْتُهُمْ فَلَمْ يَفْعَلُوا"*.

انتبه طارق بفضول بالغ:

— ماذا أشارت عليه أم سلمة؟

أجاب الأب بنبرة تفيض باحترام دور المرأة وحكمتها في الإسلام:

— قدمت أم سلمة استشارة نفسية وقيادية أنقذت الموقف! قالت بوعي وإدراك لنفسية الجماهير المصدومة:

*"يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَتُحِبُّ ذَلِكَ؟ (أن يطيعوك) اُخْرُجْ ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً، حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ (هَدْيَكَ)، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ"*. (أي استخدم لغة الفعل والقدوة بدلاً من القول).

خرج النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يكلم أحداً. أخذ حربته، ونحر هديه، ثم دعا حالقه فحلق رأسه الشريف.

فلما رأى الصحابة ذلك، أدركوا أن الأمر قد حُسم وانتهى ولا مجال للوحي بالتغيير! فقاموا جميعاً ينحرون هداياهم، وجعل بعضهم يحلق لبعض، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً وحزناً وتزاحماً على الطاعة!

تنهد طارق بارتياح وقال:

— يا لحكمة أم سلمة! ويا لروعة استجابة الصحابة حين رأوا القدوة! ولكن يا أبي، متى أدرك المسلمون أن هذا الصلح المجحف كان نصراً وفتحاً؟

ابتسم الأب وعادت الإشراقة إلى وجهه وقال:

— أدركوا ذلك وهم في طريق عودتهم إلى المدينة. أنزل الله على نبيه سورة كاملة تُبشر وتبين حقيقة ما جرى. قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب: *"لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ"*.

ثم قرأ:

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا [الفتح: 1–2].

**فسأل عمر مندهشاً: "أَوَ فَتْحٌ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟" (هل هذا حقاً فتح؟).**

**قال صلى الله عليه وسلم بيقين: *"نَعَمْ! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَفَتْحٌ!"* .**

**— وكيف كان فتحاً والمسلمون لم يدخلوا مكة وأرجعوا من جاءهم؟**

**أجاب الأب محللاً العبقرية السياسية للصلح:**

**— يا طارق، لقد كان أعظم فتح!**

**أولاً: اعترفت قريش بالدولة الإسلامية كقوة موازية لها تُعقد معها المعاهدات.**

**ثانياً: أوقف الصلح الحرب عشر سنوات؛ فأمن الناس، واختلط المسلمون بالمشركين، وسمعوا منهم القرآن. فما هي النتيجة؟**

**يقول الإمام الزهري: "فما رُمّ في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه! إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، ووُضعت الحرب، وأمن الناس، التقى الناس فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يُكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه!".**

تخيل يا بني، دخل في الإسلام خلال سنتي الهدنة أكثر مما دخل فيه منذ بعثة النبي حتى الحديبية! حتى إن خالد بن الوليد وعمرو بن العاص أسلما خلال هذه الهدنة!

أما شروط رد المستضعفين كأبي جندل؛ فقد أوجد الله لهم مخرجاً. فرّ أبو بَصِيرٍ وكون مع أبي جندل والمستضعفين عصابة مسلحة في طريق الساحل، فقطعوا طريق تجارة قريش، ولم يكن للنبي سلطة عليهم لأنهم لم يعودوا للمدينة، فاضطرت قريش نفسها أن تتوسل للنبي صلى الله عليه وسلم أن يلغي هذا الشرط ويأخذهم إليه للمدينة!

أغلق الأب كتاب السيرة، ونظر إلى طارق الذي كانت ملامحه تفيض بالذهول والإعجاب، وقال:

— هكذا هو النصر الاستراتيجي يا بني. التنازل عن القشور لكسب العقول والقلوب. وبعد أن أمن النبي صلى الله عليه وسلم جبهة قريش الجنوبية، تفرغ لتنظيف الجبهة الشمالية من غدر اليهود، ولينشر دعوته عالمياً بـ "مُرَاسَلَةِ المُلُوكِ وَغَزْوَةِ خَيْبَرَ"!

وهذا ما سنعيش أمجاده غداً في الفصل القادم!

# الفصل الثامن عشر

جلس "طارق" في زاوية المكتبة الدافئة، وأمامه كوبه المعتاد، ودفتره المفتوح على صفحة صلح الحديبية الذي أثبت ببراعة أنه كان "فتحاً مبيناً". ما إن دخل والده حاملاً مجلد السيرة حتى استقبله طارق بابتسامة فضولية وبادره قائلاً:

— أبي، في نهاية حديثنا البارحة عن صلح الحديبية، ذكرت أن من أعظم ثمار هذا الصلح هو دخول شخصيتين عظيمتين في دين الإسلام؛ هما: سيف الله المسلول خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص رضي الله عنهما. حدثني بالتفصيل عن قصة إسلام خالد بن الوليد وكيف تحول من قائد لفرسان قريش في أحد إلى سيف من سيوف الله المسلولة على أعدائه!

ابتسم الأب ابتسامة واسعة، وأخذ مقعده بهدوء، ثم قال بصوت يفيض بالإجلال والتقدير:

**— يا بني، إن قصة إسلام خالد بن الوليد رضي الله عنه تعد من أعجب قصص التحول النفسي والعسكري في التاريخ. بعد صلح الحديبية، وبعد أن أمن الناس وارتفعت الحواجز، أخذ خالد بن الوليد يراجع نفسه. يروي خالد رضي الله عنه قصة إسلامه في صحيح السيرة وابن إسحاق فيقول:** ***"لما أراد الله عز وجل بي خيراً، قذف في قلبي الإسلام، وحضرني ما حضرني، وقلت: لقد شاهدت كل المواطن مع محمد، ليس موطن إلا أوقفه فيها، ثم أرجع في غير شي، فلما سار رسول الله عام الحديبية سرت في خيل للمشركين، فلقيناه بعسفان، فتقدمت إليه حتى حلت دونه، فتنبه لرسول الله وأصحابه فصلى بهم صلاة الخوف، فوقع ذلك مني موقعاً، وقلت: هذا مانع! ثم سرت حتى أتيته مسلماً قبل فتح مكة بقليل، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغتُه: "الحمد لله الذي هداك، قد كنتُ أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير!".***

**فلما أسلم خالد، جاء معه ابن عمه عَمْرُو بْنُ العَاصِ وعُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ رضي الله عنها، ودخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة في صفر سنة ثمان للهجرة، ففرح بهم النبي صلى الله عليه وسلم فرحاً عظيماً، وقال مبيناً مكانتهم:** ***"لَقَدْ رَمَتْكُمْ مَكَّةُ بِأَفْلَاذِ كَبِدِهَا"*** **(أي بأعز رجالها وعقولها).**

**هتف طارق مأخوذاً بالبداية:**

**— هكذا إذن فتح الله قلوب دهاة العرب وقادتهم العسكريين! وما هي المحطة الكبرى التالية التي خاضها النبي صلى الله عليه وسلم بعد أمن الجبهة مع قريش؟**

**أجاب الأب بنبرة توضح التحول الاستراتيجي:**

**— بعد أن أمن النبي صلى الله عليه وسلم من قريش في صلح الحديبية، وتفرغ لتنفيذ الخطوة العالمية الكبرى، وجّه وجهته نحو وكر الخطر الداهم في الشمال؛ يَهُودُ خَيْبَرَ.**

**فخيبر كانت واحة زراعية ضخمة ومحصنة بالكامل، تبعد عن المدينة نحو 160 كيلومتراً شمالاً، وأصبحت بعد جلاء بني النضير وبني قينقاع وبني قريظة مقراً لتجمع زعماء التحالف واليهود المحرضين، ومأوى لكل منافق ومتآمر ضد دولة الإسلام الفتية.**

**سأل طارق بتركيز ميداني:**

**— ومتى خرج النبي صلى الله عليه وسلم لفتح خيبر؟ وكم كان عدد الجيش الإسلامي؟**

— خرج النبي صلى الله عليه وسلم في شهر المحرم من السنة السابعة للهجرة، في جيش مكون من أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةِ مُقَاتِلٍ (من شهدوا الحديبية فقط).

وسار الجيش سريراً حتى فاجأ أهل خيبر وهم غافلون في الصباح يخرجون بمساحيهم ومكتلهم إلى مزارعهم، فصاحوا: "محمد والخميس (الجيش)!"، وفرّوا هاربين إلى حصونهم المنيعة.

— حصون منيعة؟ كم عدد حصون خيبر وكيف تعامل معها المسلمون؟

— كانت خيبر عبارة عن حصون وقلاع حجرية ضخمة موزعة على مجموعتين رئيسيتين: حصون النطاة والشَّقّ، وحصون الكتيبة. وكان أبرزها وأعصاها حصن "قَمُوص" وحصن "النَّطَاةِ" وحصن "الصَّعْبِ بْنِ مُعَاذٍ".

استمرت المعارك والحصار أسابيع متتالية؛ كان المسلمون يحاصرون حصناً تلو الآخر، يقاتلون بشراسة لفتح بواباته الضخمة. وكان اليهود يرمونهم بالنبل والحجارة من فوق الأسوار الحصينة.

وفي أشد لحظات الحصار استعصاءً لفتح حصن الحصون (القموص أو حصون الكتيبة)، قال النبي صلى الله عليه وسلم كلمته الخالدة التي رفع بها همم الأبطال:

*"لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ"* !

بات المسلمون تلك الليلة وكل واحد منهم يتمنى أن يكون هو ذلك الرجل الموعود. فلما أصبح الناس، غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكلهم طامح أن يُعطى الراية.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: *"أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟"*

قيل: يا رسول الله، هو يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ (أصابه رمد أوجع عينيه).

فأرسل إليه فجيء به، فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه ودعا له، فبرأ في الحال حتى كأن لم يكن به وجع قط!

ثم أعطاه الراية وقال له: *"امْشِ وَلَا تَلْتَفِتْ، حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ!"* .

**هتف طارق مبهوراً:**

**— علي بن أبي طالب رضي الله عنه! كيف كانت معركته أمام حصون خيبر؟**

**— انطلق علي رضي الله عنه بالراية، وتقدم نحو حصن مرحب (بطل اليهود الفارس الشجاع الذي كان يرتجز ويقول: قد علمت خيبر أني مرحب... شاكي السلاح بطل مجرب).**

**فبارزه علي رضي الله عنه، فضربه علي ضربة قاضية فقطع رأسه، وفتح الحصن، وتهاوت حصون خيبر تلو الأخرى حتى سقطت خيبر بأسرها تحت راية التوحيد!**

**— واليهود بعد هزيمتهم، هل أُجْلوا من خيبر؟**

**— طلب يهود خيبر من النبي صلى الله عليه وسلم أن يبقيهم في أرضهم ليزرعوها مقابل أن يعطوهم نصف ما يخرج منها من تمر وزرع (على أن يخرجهم إذا شاء)، فقبل النبي صلى الله عليه وسلم طلبهم، وأقرهم بشرط أن يكون للمسلمين حق إخراجهم متى شاءوا.**

وفي خيبر وقعت حادثة الشاة المسمومة التي أهدتها امرأة يهودية (زينب بنت الحارث) للنبي صلى الله عليه وسلم، فأكل منها لقمة ثم أخبره الوحي أو الشاة نفسها بأنها مسمومة، فلفظها، وبقي أثر السم في لحيته الشريفة حتى استشهد بسببها لاحقاً (بشر بن البراء الذي أكل منها معه).

تنهد طارق وقال:

— بحمد الله نجا النبي صلى الله عليه وسلم من السم. وماذا عن المراسلات العالمية التي أشرت إليها؟ متى أرسل النبي رسائله لملوك العالم؟

أشرق وجه الأب وقال:

— في نفس هذه الفترة (بعد صلح الحديبية وخيبر)، انطلقت العَالَمِيَّةُ الإِسْلَامِيَّةُ. أدرك النبي صلى الله عليه وسلم أن رسالة الإسلام ليست للعرب وحدهم، بل للناس كافة. فدعا أصحابه يوماً وقال لهم:

*"يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي رَحْمَةً وَكَافَّةً لِلنَّاسِ، فَلَا تَخْتَلِفُوا عَلَيَّ كَمَا اخْتَلَفَ الحَوَارِيُّونَ عَلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ!"* .

وأعدّ سِتَّةَ رُسُلٍ في يوم واحد، وجهز كتباً مختومة بخاتمه الشريف (مكتوب عليها: محمد رسول الله)، وأرسلهم إلى أعظم ملوك الأرض آنذاك:

1. إلى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ (أرسل إليه دحية الكلبي).
2. إلى كِسْرَى مَلِكِ فَارِسَ (أرسل إليه عبد الله بن حذافة السهمي).
3. إلى النَّجَاشِيّ مَلِكِ الحَبَشَةِ (أرسل إليه عمرو بن أمية الضمري).
4. إلى المُقَوْقِسِ عَظِيمِ القِبْطِ بمصر (أرسل إليه حاطب بن أبي بلتعة).
5. إلى بَازَانَ مَلِكِ اليَمَنِ.
6. إلى الحَارِثِ الحِمْيَرِيّ مَلِكِ بُصْرَى والشام.

سأل طارق بلهفة بالغة:

— رسائل من نبي محاصر بالأمس في مكة، يكتب لملوك الإمبراطوريات الكبرى؟ كيف استقبل الملوك هذه الرسائل؟

— استقبلها كل ملك بحسب عقيلته وكبريائه:

- المقوقس بمصر: استقبل حاطب بن أبي بلتعة باحترام بالغ، ورد بهدايا عظيمة وجاريتين (مارية القبطية وأختها سيرين).

- **النجاشي: قرأ الكتاب، فوضع الكتاب على عينيه، ونزل عن سريره فجلس على الأرض تواضعاً لله، وأعلن إسلامه.**
- **كسرى ملك فارس: تمزق غيظاً وكريماً، ومزق كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بغرور، وقال: "من هذا العبد من قيرش يكتب اسمه قبلي؟!"، فلما بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم قال: *"مَزَّقَ اللَّهُ مُلْكَهُ!"*، فما هي إلا سنوات حتى اندكت إمبراطورية الفرس تحت أقدام المسلمين.**
- **هِرَقْلُ عظيم الروم: استقبل كتاب دحية الكلبي، وعقد مجلساً استقصائياً أحضر فيه أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ (وكان تاجراً بالشام حينها) وسأله أسئلة دقيقة عن صفات النبي وأخلاقه، حتى أقر أبو سفيان (رغم كفره يومئذ) بصدق نبوته. فلما تلا هرقل كتاب النبي قال: "إن كان ما تقول حقاً، فسيملك موضع قدمي هاتين، ولئن كنتُ أعلم أني أخلُص إليه، لتجشمتُ لقاءه، ولو كنتُ عنده لغسلت عن قدميه!". لكن بطارقته عارضوه فخاف على ملكه ولم يسلم علانية.**

**أغلق الأب المجلد برفق، ونظر إلى طارق وقال:**

**— هكذا خرج الإسلام من جغرافية الصحراء الضيقة ليخترق آفاق العالم. ولم يمضِ وقت طويل حتى وقع النقض من قريش لصلح الحديبية، ليعلن**

**النبي صلى الله عليه وسلم التحرك الكبرى نحو أعظم فتح في التاريخ... "فَتْحُ مَكَّةَ الأَعْظَمُ"!**

**وهذا ما سنعيش تفاصيله المذهلة غداً في الفصل القادم!**

# الفصل التاسع عشر

جلس "طارق" في ركنه المعتاد من المكتبة، وقد أضاء أمامه المصباح الخافت، بينما كانت أنفاسه متسارعة مع اقتراب قصة السيرة النبوية من العودة المظفرة إلى مكة المكرمة. دخل والده وابتسامة فخر تعلو وجهه، فبادر طارق قائلاً:

— أبي، في الفصل السابق رأينا كيف أرسل النبي صلى الله عليه وسلم رسائله لملوك العالم من قلب خيبر المنتصرة. كيف حدث الانتقال من الهدنة إلى فتح مكة؟ من نقض صلح الحديبية؟

ابتسم الأب وقال بصوت عميق ومفصل:

— يا بني، إن العهود والمواثيق في الإسلام مقدسة. وقد نص صلح الحديبية على أن من أحب أن يدخل في حلف محمد دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في حلف قريش دخل فيه. فدخلت قبيلة خُزَاعَةَ في حلف النبي صلى الله عليه وسلم، ودخلت قبيلة بَنِي بَكْرٍ في حلف قريش. وكان بين القبيلتين ثارات جاهلية قديمة.

وفي شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة، أغدرت بنو بكر فبيّتت خزاعة في ماء يقال له "الوتير"، وأعانهم قريش بالسلاح والرجال سراً، فوقع فيهم قتل وظلم شديد حتى الجؤوهم إلى حرم الكعبة!

فلما بلغ الخبر النبي صلى الله عليه وسلم، غضب غضباً شديداً، وأرسل إلى قريش يخيرهم بين ثلاثة أمور:

1. أن يددوا دية قتلى خزاعة.
2. أو يتبرءوا من حلف بني بكر.
3. أو يعلنوا بطلان صلح الحديبية.

فتكبرت قريش وقالت باستخفاف: "لا نختار إلا الثالثة، قد نقضنا العهد!". ثم ما لبرحوا أن ندموا وأرسلوا أبا سفيان بنفسه لتجديد الصلح ومدّ الهدنة، فجاء المدينة فما أجابه أحد من الصحابة ولا النبي صلى الله عليه وسلم، فرجع خائباً.

هتف طارق بشغف:

— إذن، سقط الصلح بسبب بغي قريش ونقضهم للعهد! فماذا قرر النبي صلى الله عليه وسلم؟

— قرر النبي صلى الله عليه وسلم التجهيز لأعظم زحف عسكري في تاريخ الجزيرة العربية. أمر الصحابة بالتجهز وكتمان الخبر، ودعا ربه قائلاً: *"اللَّهُمَّ خُذْ عَلَى عُيُونِهِمْ وَآصَابِهِمْ عَنَّا حَتَّى نَبْتَغَتَهُمْ فِي بِلَادِهِمْ!"*.

وفي العاشر من رمضان من السنة الثامنة للهجرة، خرج النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة في عَشَرَةِ آلَافِ مُقَاتِلٍ من المسلمين والقبائل المتحالفة معهم. وسار الجيش سريراً حتى نزل بمر الظهران قريباً من مكة، وقد أوقد كل مقاتل شعلة نار عظيمة، فملأت أفق مكة بالنيران المهيبة!

وقد وقع في هذه الليلة أن خرج أبو سفيان يتجسس الأخبار، فاستأمنه عمه العَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ (وكان قد خرج بأهله مهاجراً ومقرباً من النبي)، فأركبه خلفه على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذه إلى خباء النبي، فأعلن أبو سفيان إسلامه وشهادة الحق، ليكون أماناً عظيماً لأهل مكة.

سأل طارق بتركيز ميداني:

— وكيف دخل الجيش الإسلامي مكة؟ هل جرت معارك دموية؟

أجاب الأب بحماس:

— لم تكن معركة، بل كان دخولاً مهيباً سلماً وغلبة! قسم النبي صلى الله عليه وسلم الجيش إلى كتائب وأمرهم بألا يقاتلوا إلا من قاتلهم، وقسم المداخل:

- الزبير بن العوام دخل من كُداء (أعلى مكة).
- سعد بن عبادة دخل من كدي.
- خالد بن الوليد دخل من أسفل مكة.
- ودخل النبي صلى الله عليه وسلم من كُداء متواضعاً لربه حتى إن حنجرته لتكاد تمس رحل ناقته خشوعاً وتواضعاً وهو يقرأ سورة الفتح.

وأمر العباسَ أن يحبس أبا سفيان عند محسر؛ ليرى عظمة الجيش الإسلامي وقوته تمر أمامه كتيبة كتيبة. فمرت كتيبة المهاجرين، ثم الأنصار، ثم القبائل، وأبو سفيان يذهل من الكثرة والنظام، حتى مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكتيبة الخضراء الموشاة بالسلاح، فقال أبو سفيان مذهولاً: "يا عباس، ما لِابْنِ أَخِيكَ هَؤُلَاءِ مَلَكٌ قط؟!". قال: "يا أبا سفيان، إنها النبوة!". قال: "فنعم إذن!".

ثم انطلق أبو سفيان مسرعاً إلى مكة يصرخ بأعلى صوته: "يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان

فهو آمن!". فقالت زوجته هند بنت عتبة بقبح: "اقْتُلُوا الحَمْرَاءَ الْفُسَيْيَةَ (تعني النبي)". فقال: "ويلكم لا تغرنكم هذه، فإن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن!".

هتف طارق متهللاً:

— ما أعظم السماحة والعفو عند المقدرة! أين وقف النبي صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة؟

— دخل الكعبة المشرفة، ووجد فيها ثلاثمائة وثمانين صنماً، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول:

جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۖ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا [الإسراء: 81].

فتساقطت الأصنام على وجوهها وتكسرت. ثم دخل الكعبة فصلى فيها ركعتين، وخرج فوقف على باب الكعبة وقريش مجتمعة في المسجد تطأطئ رؤوسها خجلاً وخوفاً ينتظرون مصيرهم من رجل أذوه وطردوه وحاربوه لسنوات.

فقال لهم بلسان نبي الرحمة:

***"يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تَظُنُّونَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟"***

**قالوا في ذلة واسترحام: "أخ كريم وابن أخ كريم!".**

**فدمعت عينا النبي صلى الله عليه وسلم وقال كلمته التاريخية الخالدة التي أذابت قلوبهم:**

***"لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ... اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ!".***

**أغلق الأب المجلد برفق وقال:**

**— بهذا العفو الشامل، سقطت حصون العداوة، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، واستعدت الجزيرة العربية لعهد النور الأبدي.**

**هل ترغب في الانتقال إلى فصل "حجة الوداع والوفاة الشريفة" لتكتمل رحلة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في كتاب "سألت أبي"؟**

# الفصل العشرون

جلس "طارق" في ركنه المعتاد من المكتبة، وقد غمرت السكينة جنبات الغرفة، بينما كانت عيناه تتابعان والده الذي أقبل حاملاً أوراق السيرة الختامية. ما إن جلس الأب حتى بادر طارق بابتسامة متأملة وقال:

— أبي، لقد عشنا معاً رحلة مباركة بدأت من ربيع البادية، مروراً بمكة وغار حراء ودار الأرقم وبدر وأحد والأحزاب والحديبية، وصولاً إلى فتح مكة الأعظم والعفو العام. أين وصل نبينا صلى الله عليه وسلم في نهاية المطاف؟ كيف ودع أمته؟

ابتسم الأب ابتسامة حانية يكسوها الشجن والوقار، ثم قال بصوت عميق:

— يا بني، بعد فتح مكة ودخول القبائل في دين الله أفواجاً، وبعد غزوة حنين وتبوك، أذن الله لنبيه بإتمام رسالته وتأدية أمانته. وفي السنة

العاشرة للهجرة، أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس بأنه خارج للحج. فقدم المدينة بشر كثيف يحبون أن يأتموا برسول الله صلى الله عليه وسلم ويقتدوا بفعله.

خرج النبي صلى الله عليه وسلم حاجياً في ما يُعرف بـ "حَجَّةِ الوَدَاعِ". وفي تلك الرحلة العظيمة، علم المسلمين مناسك الحج وأركانه، ووقف في التاسع من ذي الحجة على جبل عَرَفَاتٍ، فوق الناقة القصواء، وألقى خطبته التاريخية الجامعة التي تُعد إعلان حقوق الإنسان الأول في البشرية.

سأل طارق بتركيز شديد:

— وما أبرز ما جاء في خطبة الوداع يا أبي؟

أجاب الأب موثقاً من صحيح السيرة والخطبة النبوية:

— وقف النبي صلى الله عليه وسلم يخطب في مائة ألف وأزيد من الصحابة، وقال بصوت عالٍ يسمعونه:

*"يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اسْمَعُوا مِنِّي أُبَيِّنْ لَكُمْ، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا بِمَوْقِفِي هَذَا...*

***أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ إِلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، وَكَحُرْمَةِ شَهْرِكُمْ هَذَا، وَكَحُرْمَةِ بَلَدِكُمْ هَذَا...***

***أَلَا وَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ...***

***وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ عَوَانٍ عِنْدَكُمْ (عوان: أسرى مستضعفون)، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله...***

***أَلَا وَإِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُم بِهِ: كِتَابَ اللَّهِ! وأنتم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟"***

**فقال الصحابة بصوت واحد يملؤه الحب واليقين: *"نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ!"*.**

**فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم أصبعه السبحانة إلى السماء ثم نكبها إلى الناس يقول: *"اللَّهُمَّ اشْهَدْ! اللَّهُمَّ اشْهَدْ!"* ثلاث مرات.**

**وفي ذلك الموقف العظيم، أنزل الله عز وجل تمام النعمة وإكمال الدين:**

**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا [المائدة: 3].**

**هتف طارق مأخوذاً بالآية:**

**— إتمام النعمة وإكمال الدين! وماذا حدث بعد عودته إلى المدينة المنورة؟**

**— بعد عودته إلى المدينة، وفي صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة، بدأت تظهر عليه علامات المرض الشديد (بداية حمى الوصم والمرض الذي توفي فيه). استمر مريضا نحو أربع عشرة ليلة. وفي أيامه الأخيرة، لما ثقل عليه المرض، أذن لأبي بكر أن يصلي بالناس، وكان يخرج متكئاً على رجلين (أحدهما الفضل بن عباس وعلي بن أبي طالب) ليجلس إلى جنب أبي بكر فيصلي بصلاته.**

**وفي يوم الاثنين، الثاني عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة، كشف النبي صلى الله عليه وسلم ستر حجرة عائشة رضي الله عنها والناس صلاة الفجر خلف أبي بكر، فتبسم ضاحكاً، وظن المسلمون أنه يريد الخروج للصلاة ففرحوا، فأشار إليهم أن أتموا صلاتكم، ورجع فأرخى الستر.**

وفي ذلكم الضحى، اشتد به الوجع، وكان رأسه على فخذ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ودخل عبد الرحمن بن عبد أبو بكر وبيده سواك، فنظر إليه النبي، فأخذته عائشة فلينته وطيبته له، فاستن به (تسوك به) أحسن ما رأى. ثم أرفع يده أو اصبعه، وقال بصوت خافت يملؤه التسليم:

*"بَلِ الرَّفِيقَ الأَعْلَى، بَلِ الرَّفِيقَ الأَعْلَى!"*.

وفاضت روحه الطاهرة إلى بارئها، وانتقل إلى الملاء الأعلى، ليعم الحزن العظيم المدينة المنورة، ويدخل عمر بن الخطاب حائراً منشداً: "والله ما مات رسول الله!"، حتى جاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه فثبت الناس بقوله الخالد: *"أَمَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ، فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ!"*، وتلا قوله تعالى:

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّدَاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ [آل عمران: 144].

فسكن الناس، وتفرقوا موقنين.

سكت الأب قليلاً، فغمر الصمت أرجاء المكتبة، بينما كان طارق مأخوذاً بتدبر هذه اللحظات الفاصلة. رفع طارق رأسه إلى أبيه، وقد بدت في عينيه أسئلة جديدة عن طبيعة الوحي ونزول القرآن، فقال:

— أبي، لقد عشنا معاً تفاصيل السيرة من مولد النبي حتى وفاته، ورأينا كيف كانت الآيات والسور تتنزل تدريجياً. ولكن يراودني تساؤل عميق حول الحالات الاستثنائية والظروف الخاصة التي أحاطت بنزول القرآن الكريم؛ مثل أسباب نزول بعض السور، أو قصة أبي لهب والسورة التي نزلت فيه، أو فترة انقطاع الوحي التي تحدثنا عنها سابقاً، وكيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يجيب عن أسئلة الصحابة والمشركين في مختلف الأحداث؟ هل يمكنك أن تفتح لي باباً أوسع لنفهم كيف كان القرآن يتفاعل مع حوادث السيرة بشكل تفصيلي دقيق؟

ابتسم الأب ابتسامة واسعة، ووضع يده الحانية على كتف ابنه، وقال:

— هذا سؤال العارف المحقق يا طارق! إن القرآن الكريم لم ينزل دفعة واحدة، بل تنزل نجوماً (آيات وسوراً مفرقة) على مدار ثلاث وعشرين سنة، ليكون معالجاً حياً، وموجهاً، ومجيباً عن كل تساؤل وموقف تعرض

**له النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون. وهذا ما سنخصص له إجابات وافية في جلساتنا القادمة لنفهم أسرار "أسباب النزيل" بدقة تامة!**

# الفصل الحادي والعشرون

جلس "طارق" في ركنه المعتاد، وقد امتلأت طاولته بدفاتر الملاحظات التي توثق مراحل السيرة النبوية العطرة من مولد النبي صلى الله عليه وسلم وحتى وفاته. وما إن جلس والده حتى بادر طارق بلهفة الباحث المحقق قائلاً:

— أبي، لقد طفنا معاً في رحلة السيرة النبوية الطاهرة، ورأينا كيف عاش النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه بشراً سوياً. ولكن، ظل في ذهني سؤال استثنائي كنت قد أشرت إليه قبل قليل: كيف كان القرآن الكريم يتنزل على النبي صلى الله عليه وسلم؟ ألم يكن ينزل بحسب الأحداث والمواقف وأسئلة الناس؟ حدثني عن تفاصيل هذه الحالات الاستثنائية، وعن أسباب النزول وتزامنها مع أحداث السيرة بالتسلسل والدقة!

ابتسم الأب ابتسامة الرضا والفخر بسؤال ابنه، وأخذ رشفة من قهوته ثم قال بصوت عميق ودافئ:

**— يا طارق، إن أعظم خصائص القرآن الكريم أنه لم يكن كتاب نظريات مجردة، بل كان "كتاب حياة" يتنزل نجومًا (مفرقاً) على مدار ثلاث وعشرين سنة، ليواكب نبض الواقع، ويجيب عن التساؤلات، ويواسر القلوب المكسورة، ويوجه القائد في أزمات الحرب والسلم. لقد كان القرآن كالماء العذب يتدفق ليطفئ لهيب الشبهات أو ليروي ظمأ المستشكلين.**

**سأل طارق بتركيز شديد:**

**— أعطني أمثلة حية وموثقة من كتب الصحاح والسيرة عن كيف كان القرآن يجيب عن أسئلة الناس أو يتدخل في مواقف معينة بالتزامن!**

**أجاب الأب مفصلاً:**

**— الأمثلة أكثر من أن تُحصى يا بني، ولنأخذها بحسب تسلسلها الزمني في السيرة:**

**1. الإجابة عن أسئلة المشركين وأهل الكتاب (التعنت والإحراج)**

**كان المشركون وأحبار اليهود يتعمدون طرح أسئلة تعجيزية على النبي صلى الله عليه وسلم لاختبار نبوته، فكان الوحي ينزل فوراً ليفحمهم.**

- **قصة أهل الكهف والروح: لما سأل مشركو مكة النبي صلى الله عليه وسلم بأمر من يهود المدينة عن فتية مضوا في الدهر وعن الروح وعن ذي القرنين، توقف النبي وقال: *"أُخْبِرُكُمْ غَدًا بِمَا سَأَلْتُمْ عَنْهُ"* ولم يستثنِ (لم يقل: إن شاء الله)، فاحتبس الوحي عنه خمسة عشر يوماً حتى شك المشروك وقالو: "واعدنا محمد غداً وقد مضى خمس عشرة ليلة وما أخبسنا بشيء!". فأنزل الله سورة الكهف كاملة لترد على قصة أصحاب الكهف وذي القرنين، وأنزل قوله تعالى في شأن الروح:**

**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا [الإسراء: 85].**

**وأنزل عتابه اللطيف:**

**وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ [الكهف: 23-24].**

## 2. قصة أبي لهب والسورة التي نزلت تحديداً لمواجهته

ذكرتَ يا طارق قبل قليل قصة أبي لهب؛ فعندما صعد النبي صلى الله عليه وسلم إلى جبل الصفا وجهر بالدعوة، وتصدى له عمه عبد العزى (أبو لهب) وقال له بفظاظة: "تبّاً لك ألهذا جمعتنا؟"، لم يترك الوحي هذا العداء السافر دون رد قرآني فوري وخالد، فنزلت سورة كاملة تتضمن وعيداً شديداً له ولزوجه أم جميل (حمالة الحطب):

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ [المسد: 1-2].

وكان نزول هذه السورة تحدياً صارخاً؛ إذ مات أبو لهب وزوجه على الكفر بعد بدر بسنين طويلة، ومات وهما على الشرك، فتحققت النبوة القرآنية بدقة متناهية.

### 3. أسباب النزول في الأحداث الأسرية والاجتماعية (حادثة الإفك وكسر القلوب)

حين خاض المنافقون في عرض أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها بعد غزوة بني المصطلق، وعاشت المدينة شهراً

كاملاً في حزن وألم لا يُطاق، والنبي صلى الله عليه وسلم يعتصر قلبه ألماً، انقطع الوحي شهراً كاملاً لامتحان الصابرين. حتى نزل فرج الله الصاعق والمبرئ لعائشة من فوق سبع سماوات في سورة النور:

إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ [النور: 11].

لتستبشر عائشة ويطهر الله بيت النبوة بآيات تُتلى إلى يوم القيامة.

### 4. التوجيه الفوري في ساحات القتال (غزوة أحد وبدر)

في ميدان بدر، اختلف الصحابة حول قسمة الغنائم بعد المعركة، فأنزل الله فوراً معالجة نزاعهم في سورة الأنفال:

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ ۖ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ [الأنفال: 1].

وفي غزوة أحد، لما نزل الرماة عن الجبل وحدث ما حدث من جراح وشهداء، نزلت سورة آل عمران متتابعة تعلل ما جرى وتواسي القلوب:

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ [آل عمران: 139].

هتف طارق مأهولاً بهذا العمق القرآني المتفاعل:

— سبحان الله! كأن القرآن كان نبضاً حياً يتحرك مع خطوات النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه! لا شك أن فهم "أسباب النزول" يمنح السيرة طعماً وعميقاً لا يُقارب.

أومأ الأب برأسه إيجاباً وقال:

— صدقت يا بني؛ فمعرفة أسباب النزول هي المفتاح الحقيقي لفهم روح الشريعة وحكمتها في معالجة واقع البشر. وبهذا نكون قد طفنا معاً في بساتين السيرة العطرة، متسلقين جذورها، متأملين تفاصيلها الإنسانية والقرآنية والجهادية.

لم يكد الأب يفرغ من حديثه عن أسباب النزول وتفاعل القرآن مع وقائع السيرة، حتى أشرق وجه "طارق" بتذكر موقف دقيق وتساؤل عميق. استند بظهر هادئ إلى مقعده، ونظر إلى أبيه قائلاً:

— أبي، ذكرت قبل ليلات قصة "فترة الوحي" وانقطاعه في بداية الدعوة وكيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يحزن لاشتياقه لصوت جبريل، حتى إن المشركين استهزءوا به وقالوا: "قلى محمداً ربه" (أي أبغضه وتركه). فكيف رد القرآن على هذا الافتراء؟ وما قصة نزول سورة الضحى؟ حدثني عن تفاصيلها الدقيقة كما جاءت في الصحاح!

ابتسم الأب ابتسامة مشفوعة بالحنين والخشوع، وقال:

— يا طارق، لقد لامست واحدة من أكثر اللحظات رقة وعاطفة في تاريخ التنزيل الحكيم. لقد انقطع الوحي عن النبي صلى الله عليه وسلم أياماً (أو أشهراً بحسب الخلاف)، فظن المشركون ظناً خابوا فيه، وجاءت امرأة من المشركين (وهي أم جميل زوجة أبي لهب، أو العزة بنت أبي سفيان على خلاف في الرواية) فقالت للنبي متعجبة ومستهزئة: "يا محمد، ما

أرى شيطانك إلا قد ترككَ! لو كان يحبك لقد دنا منك منذ أبدين أو ثلاثة!".

تألم النبي صلى الله عليه وسلم من كلامها أشد الألم، واعتصر قلبه الشوق لربه ولجبريل عليه السلام. فأنزل الله عز وجل سورة الضحى لتكون بلسماً شافياً يمسح على قلبه الشريف، ويقسم الله فيها بأعظم آيات الكون:

وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ [الضحى: 1-5].

هتف طارق متأثراً بعمق الآيات:

— "ما ودعك ربك وما قلى"! ما أعظمها من كلمات تطمئن القلب المتألم! وهل ذكرت السورة مراحل حياته الأولى يا أبي؟

— نعم يا بني؛ لقد ذكره الله عز وجل بنعم فضله ورعايته له منذ نعومة أظفاره ليقر عينه ويثبت فؤاده، فقال ممتناً:

**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ [الضحى: 6-8].**

**(والضال هنا يعني الحائر في طريق الهداية الشاملة قبل الوحي، فهداه الله بالقرآن والنبوة، والعائل يعني الفقير فأغناه الله بسخاء قلبه ورزقه).**

**وختمت السورة بتوجيه إنساني واجتماعي عظيم يترجم هذه الرحمة النبوية إلى واقع عملي:**

**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ [الضحى: 9-11].**

**أنصت طارق بإجلال، ثم قال:**

**— وكأن هذه السورة هي الدواء الإلهي لكل مكسور خاطر، فضلاً عن كونها تطميناً مباشراً لنبي الرحمة عليه الصلاة والسلام.**

**أومأ الأب برأسه إيجاباً وقال:**

**— صدقت يا طارق، فالقرآن كله كان مأوى لروح النبي صلى الله عليه وسلم ومعيناً له على مصاعب الرسالة.**

# خاتمة الكتاب

## بين يدي السيرة العطرة

أيها القارئ الكريم، يا من رافقتنا في هذه الرحلة الطويلة الممتدة عبر صفحات كتاب "سألت أبي"؛ ها نحن نصل إلى مسك الختام، ونطوي أوراق هذه السيرة العطرة التي عشنا نبضها إنساناً ونبياً وقائداً وأسوة.

إننا إذ نضع بين يديك هذا العمل المتواضع، ندرك تمام الإدراك أن محاولة الإحاطة بحياة نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم، وتفاصيل روحه العظيمة، ودقائق سيرته الشريفة، هي محاولة تقف أمامها الأقلام عاجزة، وتضيق بعباراتها سطور البشر. فالبحر الأعظم لا يحيط به إناء، وسيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم هي أعظم سيرة عرفتها البشرية، صيغت بعناية ربانية فائقة لتكون منارة للعالمين إلى قيام الساعة.

لقد جهدنا قدر الإمكان، وبذلنا أقصى وسعنا وجهدنا البشري، متتبعين أصح الروايات وأمهات كتب السيرة والحديث والصحاح، لنجمع لك كل

تفصيلة، ونربط الأحداث والسور القرآنية وأسباب النزول بتسلسل دقيق وموثق، مبتعدين عن الاختصار المخل أو السرد الجاف، لعلنا نفلح في غرس محبة النبي الشريفة وشخصيته الإنسانية الدافئة في قلبك وعقلك.

ولكن، مع حرصنا الدائم على التحري والدقة، يبقى القصور البشري طابعاً لازماً لكل جهد غير معصوم؛ فإن وجدْتَ زللاً، أو تقصيراً، أو خطأً غير مقصود، فجلّ من لا يسهو، ونسأل الله أن يتجاوز عنا، وأن يكتب لنا ولكم الأجر والثواب على صدق النية والمحبة.

هذا الكتاب ثمرة جهد بشري محب، فإن كان فيه من توفيق فمن الله وحده، وإن كان فيه من تقصير فمنا ومن أنفسنا.

نسأل الله العلي القدير أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعله نافعاً لكل قلب يقرؤه، ولكل روح تبحث عن طريق النور. وصلّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

# المصادر والمراجع الموثقة لكتاب "سألت أبي"

يضم هذا المستند توثيقاً دقيقاً للمصادر والمراجع والرابط المعتمدة لكل فصل من فصول كتاب "سألت أبي"، مستنداً إلى أمهات كتب الحديث والسيرة النبوية (الصحاح)، مع ذكر روابط المواقع والموسوعات الحديثية الكبرى التي أُخذت منها النصوص.

يعتمد الكتاب بأساسه على:

1. **صحيح البخاري** (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه).
2. **صحيح مسلم** (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم).
3. **السيرة النبوية لابن هشام** (تهذيب سيرة ابن إسحاق).
4. **البداية والنهاية لابن كثير**.
5. **السنن الكبرى للبيهقي** و**مسند الإمام أحمد**.

- **الأحداث والقصص:** نشأة النبي صلى الله عليه وسلم، حادثة شق الصدر، زواجه بالسيدة خديجة رضي الله عنها، وقصة بدء الوحي في غار حراء ونزول أول آيات سورة العلق (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ).
- **المصادر والروابط الموثقة:**

- صحيح البخاري - كتاب بدء الوحي: موسوعة الحديث - صحيح البخاري
- سيرة ابن هشام - بدء الوحي ونزول الملك: السيرة النبوية لابن هشام - المكتبة الشاملة
- حديث شق الصدر في صحيح مسلم: صحيح مسلم - كتاب الإيمان

- **الأحداث والقصص:** الصدع بالدعوة، موقف قريش، دار الأرقم بن أبي الأرقم منطلقاً للدعوة السرية والعلنية، وتعذيب الصحابة (قصة آل ياسر، بلال بن رباح)، وهجرة الحبشة الأولى والثانية.
- **المصادر والروابط الموثقة:**
  - صحيح البخاري - قصة إسلام عمر بن الخطاب ودار الأرقم: موسوعة الحديث الشريف
  - سيرة ابن إسحاق وابن هشام - الهجرة إلى الحبشة: درر السيرة النبوية

- **الأحداث والقصص:** وفاة أبي طالب وزوجة النبي خديجة رضي الله عنها (عام الحزن)، رحلة الطائف، ثم رحلة الإسراء والمعراج وفرض الصلوات الخمس.
- **المصادر والروابط الموثقة:**
  - صحيح البخاري وصحيح مسلم - حديث الإسراء والمعراج: صحيح البخاري - كتاب الصلاة / كتاب المعراج
  - سيرة ابن هشام - خروج النبي إلى الطائف: المكتبة الشاملة - السيرة

- **الأحداث والقصص:** بيعة العقبة الأولى والثانية، الهجرة النبوية المباركة برفقة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، الاختفاء في غار ثور، الوصول إلى المدينة المنورة، وبناء المسجد المؤاخاة، ووثيقة المدينة.
- **المصادر والروابط الموثقة:**
  - صحيح البخاري - كتاب المناقب (هجرة النبي صلى الله عليه وسلم): صحيح البخاري - الهجرة
  - سيرة ابن هشام - أحداث غار ثور وبناء المسجد: سيرة ابن هشام

- **الأحداث والقصص:** غزوة بدر الكبرى (نزول الملائكة والنصر العظيم)، غزوة أحد (قصة الرماة، استشهاد حمزة بن عبد المطلب، ونزول آيات سورة آل عمران)، غزوة الأحزاب (الخندق) وقصة نعيم بن مسعود وتشتيت الأحزاب.
- **المصادر والروابط الموثقة:**
  - صحيح البخاري - غزوة بدر وأحد: صحيح البخاري - كتاب المغازي
  - تفسير ابن كثير - آيات سورة آل عمران والأنفال المتعلقة بالغزوات: تفسير القرآن العظيم لابن كثير

- **الأحداث والقصص:** رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم، صلح الحديبية وبنوده، إسلام سيف الله المسلول خالد بن الوليد وعمرو بن العاص رضي الله عنهما، فتح خيبر الكبرى وفتح حصون النطاة والقموص وإعطاء الراية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومراسلة الملوك (هرقل، كسرى، المقوقس، النجاشي).
- **المصادر والروابط الموثقة:**

- صحيح البخاري - صلح الحديبية (شروط الصلح): صحيح البخاري - كتاب الشروط
- صحيح مسلم - قصة إسلام خالد بن الوليد وفتح خيبر: صحيح مسلم - كتاب الجهاد والسير
- صحيح البخاري - كتب النبي إلى الملوك: صحيح البخاري - كتاب الجهاد

- **الأحداث والقصص:** نقض قريش لصلح الحديبية، فتح مكة في رمضان سنة 8 هـ، العفو العام ("اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ")، حجة الوداع ونزول آية إكمال الدين (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)، ووفاة النبي صلى الله عليه وسلم في ربيع الأول سنة 11 هـ وانتقاله إلى الرفيق الأعلى.
- **المصادر والروابط الموثقة:**
  - صحيح البخاري ومسلم - فتح مكة والعفو العام: موسوعة الحديث الشريف - فتح مكة
  - صحيح البخاري - خطبة حجة الوداع ومرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته: صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب مرض النبي ووفاته

- **الأحداث والقصص:** تفاعل القرآن الكريم مع أحداث السيرة وأسئلة المشركين (قصة أهل الكهف والروح، حادثة الإفك)، وقصة انقطاع الوحي مؤقتاً ونزول سورة الضحى (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ).
- **المصادر والروابط الموثقة:**
  - صحيح البخاري ومسلم - بدء سورة الضحى وأسباب النزول: صحيح البخاري - كتاب التفسير
  - أسباب النزول للإمام الواحدي وتفسير السيوطي (الدر المنثور): المكتبة الشاملة - كتب أسباب النزول